

الشرك وعبادة الأوثان في القرآن الكريم

السيد عباس السيّد كريمي الحسيني

ترجمة عبدالأمير آل كمال (كمال وان)

المقدمة

الكتاب عبارة عن مجموعة من البحوث المتعددة في الشرك، وهي: عبادة الأوثان، الديانة الوثنية، رسالة الأنبياء في الدعوة للتوحيد ونفي الشرك، معنى العبادة، معنى الشرك، أقسام الشرك، هل أن الأوثان في رأي المشركين مستقلة عن الله في تأثيرها أم لا، الشرك الجلي الظاهري والشرك الباطني ومباحث أخرى وذلك بالاعتماد على آيات القرآن الكريم.

لقد تناول القرآن الكريم - في حدود ربع من آياته الشريفة - بحث الشرك بشكل واسع. ومن خلال نظرة شاملة نستطيع القول أن جميع الآيات القرآنية لها علاقة بالتوحيد وحيى المعاد والجنة والنار والحساب والكتاب والنبوة والإمامة وعلم الفقه مرجعها جميعاً الى التوحيد. فبحث التوحيد هو الأول والأخير.

لقد بحثنا مسألة الشرك في جميع آيات القرآن الكريم فوجدنا ما يُقارب ألف وخمسمائة آية في هذا المجال وبعد المطالعة والبحث دوّنّا ما توصّلنا إليه في دراستنا من إستنتاجات وملاحظات وأفكار جديدة فقمنا بتدريسها على طلبة الحوزة العلمية في قم المقدسة وأخيراً ارتأينا أن نطبعها على شكل كتاب لنضعها بين يدي القراء الكرام من طلاب الحق والحقيقة.

إنّ إحدى الدوافع المهمة التي دعّتنا لأن نقوم بهذا البحث هو الحصول على إجابات متقنة منطقية لردّ العقائد الوهابية الضالة. ففي سفراتنا المتكررة الى المملكة العربية السعودية للحجّ والعمرة أثارتنى مسألة مهمة لمجاميع ما يُسمى بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ وهي اتهامهم للشيعة بالشرك ويرون أن التوسل بالنبيّ وأهل بيته(عليهم السلام) شرك وكذلك تقبيل الحرم وبابه. ويقولون: أن طلب الحوائج لا يمكن أن يكون إلا من عند الله وحده.

ولأجل الردّ على عقائدهم الباطلة رأينا من الضروري أن نقوم بدراسة واسعة في المعنى الصحيح للشرك من أجل أن نبين لهم مواطن الخطأ والإشتباه في فهمهم للشرك في القرآن الكريم.

وبعد البحث والتنقيب في آيات الكريم تبين لنا مواطن الخطأ والانحراف عندهم. فهم لا يُفرّقون بين أن يكون المتوسل به مستقلاً عن الله في تأثيره نفعاً وضراً وبين أن لا يكون مستقلاً بل هو تابعاً.

في حين أن الشرك هو أن تعتقد أن المتوسل به مستقلاً في تأثيره عن الله تعالى والشيعة لا يعتقدون في توسلهم بالنبيّ(صلى الله عليه وآله) والأئمة(عليهم السلام) بأنهم مستقلون عن الله تعالى.

سوف نتناول في الكتاب ذلك بشكل مفصل ونتمنى أن تكون هذه المباحث خطوة في طريق بيان مفهوم الشرك ومعناه.

السيد عباس السيّد كريمي الحسيني

قم المقدسة ١٤٢٦ هـ . ق

١

عقيدة الوثنيين في
«الله تعالى»

سوف نتناول في دراستنا هذه عقيدة الوثنيين في محاور ثلاث وهي:

١ - عقيدتهم في الله.

٢ - عقيدتهم في الأوثان.

٣ - عقيدتهم في المعاد.

١ - عقيدتهم في الله:

يعتقد المشركون بأنه لا يوجد خالق ومدبّر لهذا العالم إلا الله تعالى. فهم يُقرّون بأن الله تعالى هو الخالق والمدبّر لما في السموات والأرضين وما بينهما ولا يوجد غيره تعالى وعليه يمكن أن نقول إنّ هذه المسألة من الأمور الايجابية في عقيدتهم لأنّها تنسجم مع ما يعتقد به الموحدون لله تعالى .

وهناك بعض الآيات التي تدل على هذا المعنى وهي:

الآية الأولى:

(قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يَدَبِّرُ الْأُمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ* فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ)^(١)

توضيح:

«الأمر» هو مصدر معرّف بالألف واللام لإفادة العموم فيكون معناه كل الأمور .
فالله تعالى يُبيّن في آخر الآية ٣١ تخبط المشركين العقائدي الخاص بتدبير الأمور في الكون لعدم تقواهم وضياعهم وتيههم.

(فذلّم الله ربكم الحق)

في هذا القسم من الآية يُوضّح تعالى أنّ الخالق الحقيقي والوحيد هو الله ولا يوجد مدبّر غيره. والاعتقاد بتأثير غير الله في هذا الوجود ليست إلا أوهام وظنون. فلا يوجد في الحقيقة والواقع ربّ وخالق غير الله. وكل ما عداه باطل. لأنه لا يوجد بعد الحق إلا الضلال فالحق هو الأوّل والأخير وهو الله تعالى.

(١) يونس: ٣١ - ٣٢ .

وسنوضح لاحقاً إنّ القرآن الكريم يُصرّ ويؤكد على هذه المسألة وهي: أن الاعتقاد بتأثير غير الله تعالى في هذا الكون مجرد أوهام وخيال وأنه لا يوجد بعد الحقّ إلا الضلال والله تعالى هو الحق المبين.

فهناك البعض ممّن يتصور واهماً بتأثير غير الله تعالى في هذا الكون .
والحقيقة أنّ الأوثان لها تأثير في نطاق دائرة أوهام الوثنيين لا في الواقع كما يدعيه هؤلاء.

و«فأني تُصرفون» توضّح مدى الابتعاد عن هذه الحقيقة والواقع والسير خلف الأوهام والخيال.

ولقد وردت جملة «فسيقولون» في آيات عديدة ومن الضروري أن نوضح بعض الأمور بصدها لأجل أن نستفيد منها في بعض الموارد الأخرى. فهي تقول: أنّ المشركين سيذعنون عاجلاً بأن تدبير الأمور في هذا الكون والوجود بيد الله تعالى.

الآن لدينا بعض الملاحظات الدقيقة وهي: هل أنّ مراد الآية هو: يا رسول الله عما قريب سوف تسأل المشركين وهم هكذا سوف يُجيبون؟ أم مرادها هو: يا رسول الله إذا أردت أن تسأل هؤلاء فرضاً فهكذا سوف يجيبون.

أم أنّ مرادها هو: إنّ هؤلاء إذا ما حكّموا فطرتهم فإنّهم سوف يُجيبون: إنّ الذي يُدبر هذه الأمور في الكون هو الله تعالى.

فأي فرض من هذه الفروض الثلاث التي ذكرناها يفي بإثبات ما نريد إثباته.
وهو: أنّ الآية تدل بوضوح أنّ المشركين يذعنون أنّ الله تعالى هو الخالق والمدبّر للأمور في الكون لا غيره .

والدليل على ذلك كما في الوجه الأوّل والثاني إذا سألتهم أو على فرض أن تسألهم فسوف يكون جوابهم هو الاعتراف بذلك. وعلى الوجه الثالث وهو جواب فطرتهم وهنا اعتراف أيضاً منهم في داخل أنفسهم.

فنتيجة القول هو: أنّ الاعتقاد بأنّ الله تعالى هو وحده مدبّر الأمور في الكون أمر فطري.
فإذا استطاع الإنسان أن يُخلص فطرته من الحجب والأدران سوف يصل الى هذه النتيجة بشكل يسير.

هناك نقطة لطيفة في (فسيقولون) للدلالة على المستقبل القريب.
ومن المحتمل أن يكون إدخال (السين) على الفعل لغرض بيان هذا الأمر وهو: أن جواب هذا السؤال من الوضوح والبداهة بحيث لا يحتاج الى مزيد من التفكير والتأمّل حتّى يسأل هؤلاء مَنْ هو الرازق و...؟ وهؤلاء سوف يجيبون بأنفسهم على هذا السؤال مباشرة وبدون تلك الله.

فيكون المقصود من دخول (السين) في قوله (فسيقولون) لأجل توضيح بداهة وبساطة هذا السؤال والتأكيد أكثر على كون الجواب جواباً فطرياً بديهياً ساذجاً. ويُحتمل أن تكون العلة في تكسير إبراهيم (عليه السلام) للأصنام هو إزالة الحُجب والأدران عن فطرة المشركين ولأجل ذلك وضع المعول بعد تكسيره للأصنام في رقبة كبير الأصنام . وقال (عليه السلام) لهم - عندما سألوه مَنْ فعل هذا بآلهتنا - إذا كانت هذه الأصنام تتكلم كما تدّعون فاسألوا هذا الصنم الكبير عن مَنْ قام بتكسير هذه الأصنام. لقد أراد (عليه السلام) بهذا العمل أن يفيقوا من الغفلة وأن يرجعوا الى فطرتهم. ولقد أفاقوا للحظات قليلة ولكن رجعوا الى غفلتهم ثانياً بسبب الأجواء المحيطة الملوثة وصاحوا اقتلوه أو حرقوه وانصروا إلهتكم^(٢).

إيقاظ الفطرة

الفطرة الغارقة في سبات من الغفلة عندما تواجه بعض الأحداث غير المؤلوفة أو المواقف المؤثرة في صميم وجود الإنسان ومستقبله فإنها سوف تفيق من غفلتها وتصحو كما جاء في قوله تعالى:

(فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ)^(٣).

فيُستفاد من هذه الآية أن الفطرة الإنسانية عندما تُداهمها الأخطار فإنها سوف تستيقظ من غفلتها وتطلب النجاة من القدرة المهيمنة على هذا الوجود وهو الله تبارك وتعالى.

ولكن بمجرد أن تزول تلك الأخطار وينجو من المحنة التي واجهته توّاً ويصل الى برّ الأمان يرجع الى ماكان عليه ويلفّ فطرته ثانياً غطاء الغفلة والسُّبات.

إنّ توحيد الإنسان يبلغ كماله عندما لا يتأثر بالظروف والمحن التي تواجهه. وإلا فهو في حال الصحة والمرض والرفاه والعافية والبلاء والشدائد يجب أن يعتقد أن الأمور كلها بيد الله تعالى وحده^(٤).

ومن المناسب أن نتعرض الى هذه النكتة هنا. وهي أنه من المحتمل أن يكون أحد أسباب البلايا والمصائب والمحن هو إنتشار الفطرة الإنسانية من سباتها وسوقها باتجاه بارئها.

(٢) سورة الأنبياء: ٥٧ - ٥٨ .

(٣) العنكبوت: ٦٥ .

(٤) بمعنى أن كمال التوحيد الإلهي من قبل الإنسان أن يعيش في حالة المصائب والمحن كما يعيش في حالة الرفاهية والسلامة على وتيرة واحدة من الرضى والتسليم موحداً في زمن الأخطار والمحن فقط وإلا فهذه وحدانية زالة غير ثابتة فحالة الرضى والتسليم بالأمر الإلهي لابد أن يكون في كلّ الأحوال لكي يكون الإنسان كمال الإيمان موحداً لله تعالى.

فعندما يُبتلى الإنسان بالمصائب ويصل الى أنه لا ملجأ إلا الله تعالى وحده. عند ذلك سوف يتجه إليه تعالى ولكن عندما تكون الأمور طبيعية سوف لا تتوفر له مثل هكذا فرصة لمعرفة الله والعودة إليه.
هذا وإننا سوف نتعرض لاحقاً الى مبحث الفطرة الإنسانية.

الآية الثانية:

﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ* قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ* سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ* قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ* سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ^(٥) .

توضيح:

«مَنْ» استعملت في الآية ٨٤ للعقلاء وتعني مَنْ هو خالق السماوات والأرض والعقلاء الموجودون في الأرض^(٦) .
«والملكوت» مثل جبروت وهي صيغة مبالغة وتعني الملك أضيف إليها الواو والتاء للمبالغة في الملكية. فتدلّ على أن الملكية المطلقة لله تعالى.
فمفاد الآية أن ملكية الأشياء قاطبة ومصيرها بيد الله تعالى ولا يوجد من دونه ولي ولا نصير وقد اعترف المشركون بمثل هذا النوع من الملكية.

الآية الثالثة:

﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ فَاَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ* وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لِيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ^(٧) .

توضيح:

«يقدر لمن يشاء»: بمعنى التضيق في مقابل السعة.
وهكذا في الآية (وَذَا النُّونِ إِذْ ذُهِبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ)^(٨) .

(٥) سورة المؤمنون: ٨٤ - ٨٩ .

(٦) مجمع البيان ذيل الآية نفسها ج ٧ ص ٢٠٣ .

(٧) العنكبوت: ٦١ - ٦٣ .

(٨) الأنبياء: ٨٧ .

فقد تصور يونس أننا سوف لا نُضَيَّق عليه.

هناك نقطة ظريفة نستطيع أن نستفيدها من الآية ٦١ وهي: يا أيُّها المشركون إنَّكم تعترفون بأن خالق السماوات والأرضين والشمس والقمر وسائر الموجودات هو الله تعالى وتدبيرها بيده تعالى فلماذا إذن أنتم عاكفون على أصنامكم ولا تؤمنون بالله تعالى.

- وفي الحقيقة إن اعترافهم بذلك يعني أنهم يُقرّون بأن الأصنام هي أيضاً مخلوقة لله تعالى. لأنها جزء من السماوات والأرضين - فأَيُّما تعبدون من الموجودات السماوية أو الأرضية فهي مخلوقة لله تعالى لأنه هو خالق السماوات والأرضين وجميع ما فيها وأصنامكم منها. فعليه إنَّكم تقرّون أن الأصنام مملوكة لله تعالى بشكل محض وليس لها تأثير وكل ما لديها فهو من الله تعالى إذن فلماذا تلبسون الحقّ بالباطل وترون الحق باطلاً والباطل حقاً وهل ذلك إلا عمل غير العقلاء. هكذا صرّحت الآية ٦٣ يعني: (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) بذلك.

و(فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ) عن معجم مفردات الراغب إنَّ الإفك: كَلٌّ مصروف عن وجهه الذي يحقّ أن يكون عليه. وبأخذ معنى الإفك بنظر الاعتبار يصبح معنى الآية: أنَّ الحقّ هو أن تعبدوا الله تعالى وحده وذلك وفق إقراركم أنتم بأن تدبير الأمور وزمامها جميعاً بيده تعالى. لكنكم في الواقع تعملون على خلاف ما تعتقدون فأنتم بدل أن تعبدوا الله تعالى وحده تعبدون الأوثان التي لا حول ولا قوة لها. وعليه فجملة (فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ) يكون معناها: أنكم ابتعدتم عن الحق وتركتموه وذهبتهم خلف الباطل وهذا نفس معنى (فَأَنَّى تُسْحَرُونَ) التي مضى بيانها في الآيات السابقة.

سؤال:

يمكن أن يُثار هنا السؤال التالي في الذهن وهو: كيف يمكن للإنسان أن يجمع بين عقيدتين متضادتين؟ فمن جهة يعتقد بأن خالق السماوات والأرضين ومافيهما هو الله تعالى ومن جهة أخرى يعتقد بأن هناك مَنْ ينفع ويضرّ وهو غير الله تعالى.

وفي الحقيقة أن الجمع بين هاتين العقيدتين من الأمور المستحيلة فمن جهة يعتقد أن جميع الموجودات بما فيها الأوثان نفسها من الله تعالى ومن جهة أخرى يعتقد أن الأوثان لها تأثير.

فكيف يمكن الجمع بين هاتين العقيدتين؟

إنَّ الاعتقاد بهاتين العقيدتين سوية أمرٌ غير عقلائي ولا يوجد عاقل يعتقد بهاتين العقيدتين المتضادتين وهو أن يقول بأن الأوثان لها تأثير مستقل ويقول أن الأوثان مخلوقة الله تعالى وجميع مآلديه منه تعالى.

بالتأكيد هناك مَنْ يتصور بأن الله تعالى له التأثير المستقل والأوثان لها تأثير بشكل غير مستقل بل تأثيرها في طول تأثير قدرة الله تبارك وتعالى أي تستمد تأثيرها منه تعالى. كما نعتقد نحن في الأنبياء والأئمة (عليهم السلام) فعيسى (عليه السلام) كان يُحيي الموتى ولكن بإذن الله تعالى.

فهذه العقيدة في الأوثان من ناحية نظرية ممكنة عقلاً ولا غبار عليها أما من ناحية عملية تحتاج الى دليل لاثباتها.

فنقول هنا: أن عقيدة الوثنيين هل هي من النوع الأول أي كانوا يعتقدون أن الأوثان مستقلة في تأثيرها أم هي من النوع الثاني؟ أي أن الأوثان ليس لها تأثير مستقل عن قدرة الله تعالى وإرادته.

نستفيد من الآيات التي مرّ ذكرها أن عقيدة الوثنيين كانت من النوع الأول أي كانوا يعتقدون بالأوثان أنها مؤثرة بشكل مستقل عن قدرة الله تعالى وذلك من خلال قرينتين:

القرينة الأولى: حرف الفاء في (فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ) معناها أين تذهبون؟ أي ماذا تصنعون. فعندما يكون تدبير جميع الأمور بيد الله تعالى فلماذا تذهبون خلاف ذلك؟

والظاهر أن الآية قد أوجدت ملازمة وعلاقة بين خلق الله تعالى للسموات والأرضين وبين ضرورة عدم الاعتقاد بالأوثان.

وهذه الملازمة صحيحة فيما لو كانت الأوثان لها تأثير مستقل لوحدها وإلا ففي حال القول والاعتقاد بتبعية تأثيرها للقدرة الإلهية لا توجد هناك ملازمة ; وذلك لأن الاعتقاد بتأثير الأوثان في هذه الحالة هو عين الاعتقاد بتأثير الله تعالى.

وكما هو الحال في طلب الحوائج من الأنبياء والأئمة هو عين طلب الحوائج من الله تعالى^(٩).

القرينة الثانية: (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) أي أن عبادة الأوثان عمل غير عقلائي وأكثر الوثنيين يعملون بخلاف العقل وهذا المعنى ينسجم مع القول باستقلالية التأثير للأوثان.

وكما وضّحنا سابقاً أن الاعتقاد بين استقلالية الله تعالى في التأثير وبين استقلالية الأوثان بالتأثير مستحيلة من ناحية نظرية وعقلية.

لكن القول بعدم استقلالية الأوثان وأن تأثيرها هو امتداد لتأثير الله تعالى غير مستحيل حتى يُقال أن هذه العقيدة هي خلاف العقل.

(٩) مع الفارق الكبير في القياس بين الحالتين ففي الحالة الأولى وكما ذكرنا سابقاً ممكنة من ناحية نظرية ولكنها لم تثبت من ناحية عملية ولم يتوفر الدليل عليها في حين في جانب الأنبياء والأئمة قد يتوفر الدليل النقل والعقلي على ذلك .

إنّما المشكلة من ناحية عملية وعنده لا بدّ أن يكون لسان الآية بشكل آخر; مثلاً لا بدّ أن يقول: لا يوجد لديكم دليل لا أن يقول أن هذه العقيدة غير عقلانية.

الآية الرابعة:

(وَكُن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ* لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ* وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرَ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ* مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ* أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ* ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ* أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ* وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ^(١٠) .

مفاد هذه الآيات كمفاد الآيات السابقة تبين اعتراف وإقرار المشركين بأن خالق السماوات والأرضين الله تعالى وحده.

توضيح:

يبدو إن المراد من : (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) هو نفس المراد من (أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) التي مر ذكرها في الآيات السابقة حيث يمكن أن يستعمل العلم بمكان العقل وبالعكس والنكته في ذلك أن الإنسان الذي لا يفكر بعقله فهو جاهل لا يعلم ومن لا يستفيد من عقله سوف يزرع تحت نير الجهل.

«إِنَّمَا»: (ما) اسم موصول وهو بمعنى «الذي» وقد أدمجت مع «أَنَّ»

«من شجرة»: تبين معنى «ما» وهو: أَنَّ جميع ما على الأرض من الأشجار لو تتحول أقلاماً.

«سبعة أبحر»: يبدو أن هنا استعمال العدد «سبعة» ليس لخصوصية فيه وإنما للكثرة وهو بمعنى عدة بحار.

«ما نفدت كلمات ربي»: «النفاد» الانتهاء والمراد من «كلمات» هو العلم والتقدير الإلهي وبكلمة مختصرة لو تحولت جميع ما على الأرض من أشجار إلى أقلام واتصلت البحار بعضها ببعض لتصير مداً يكتب به علم الله تعالى وتقديره لنفدت البحار قبل أن ينفد علم الله تبارك وتعالى وتقديره وهذا هو المعنى المراد من:

(قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا)^(١١) .

المراد من «المداد» هو الحبر .

(١٠) لقمان: ٢٥ - ٣٢ .

(١١) الكهف: ١٠٩ .

«ولو جننا بمثله مدداً»: يعني حتى لو أدركناه بمداد مثله وهذه القرينة تدل على أن المراد من «سبعة أبحر» للكثرة لا العدد. والنكته في ذلك واضحة وهي أن العلم والتقدير الإلهي مطلق غير متناهي والبحار محدودة متناهية.

بعد أن اتضحت لنا القدرة الإلهية المطلقة في الآيات السابقة يتبين لنا في الآية ٢٩ مظهراً من مظاهر هذه القدرة وهي: أنه تعالى يُولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل فمرة يجعل عدد ساعات الليل أكثر من عدد ساعات النهار بإدخال ساعات من النهار في الليل أخرى بالعكس. وسخر الشمس والقمر دائبين في خدمة الإنسان يستفيد منهما في نهاره وليله وفي سائر أموره الحياتية.

«ذلك بأن الله هو الحق»: لقد بين في الآيات السابقة مسألتين أحدهما: العلم والقدرة الإلهية المطلقة المتناهية والأخرى ضرب لذلك أمثلة من إيلاج الليل في النهار والنهار في الليل وتسخير الشمس والقمر في خدمة الإنسان.

أما هنا فهو يُبين إنَّ الذي لديه هذه القدرة في أداء هذه الأمور وإنجازها في الحقيقة والواقع هو الله تعالى وهذا هو الحق المبين وهو عين الواقع لا مجرد خيال.

ولذا فأَيُّ موجود من الموجودات ليس له القدرة والقابلية على إنجاز هذه الأمور وأدائها فهو إله وهمي نشأ من وحي الوهم والخيال وهو ليس إلهاً حقيقياً واقعياً هذا وإن جميع الإلهة من الأوثان هي مجرد أوهام ليس لها واقع.

وعليه فأنتم أيها الوثنيون لستم طلاباً للحق والحقيقة وإنما أنتم جهال تسعون خلف الأوهام والخيالات، فما يُميز الإله الواقعي عن غيره العلم والقدرة المطلقتين وإلا فمن لا يمتلكهما فهو ليس بإله في الحقيقة والواقع وإنما هو إله وهمي من نسج الخيال.

«وأنَّ الله هو العليَّ الكبير»: أيَّ أنَّ الله تعالى يسمو على كل شيء وبيده مصير الموجودات ولا سلطان لغيره في هذا الوجود وكل ما عداه من آلهة مفروضة ليس لها حول ولا قوة.

لقد بينت الآيات ٣١ و ٣٢ جانب آخر من القدرة الإلهية المطلقة.

وإذا أمعنا النظر في الآيات ٢٥ الى ٣٢ نرى نظاماً خاصاً متقناً يبتدأ ببيان القدرة المطلقة لله تعالى، ثم يشرع ببيان مصاديق ذلك في الوجود ويصل أخيراً الى أن الإله الحقيقي والواقعي هو مَنْ لديه هذه الصفات وكل ما عداه مجرد آلهة وهمية ثم يشرع مرة أخرى ببيان مصاديق أخرى للقدرة الإلهية المطلقة.

الآية الخامسة:

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ) (١٢) .

هذه الآية وإن كانت لا تدل على المعنى المطلوب الذي نحن بصدد بيان المعنى المطلوب. لتوضيح الآية ٣٨ من سورة الزمر التي ستأتي لاحقاً وهي بصدد بيان المعنى المطلوب. لقد جاء في تفسير مجمع البيان وتفسير الكشاف أن المشركين كانوا يُخَوِّفُونَ النبي (صلى الله عليه وآله) بأصنامهم وكانوا يقولون له (صلى الله عليه وآله): لسنا نقول فيك إلا أنه أصابك بعض الهتنا بالخبيل والجنون لشتمك إيّاها وسبّك لها ونخشى عليك أن تُهلكك آلهتنا. والمراد من «الذين من دونه» أي الأصنام.

ولا يخفى أنّ الأمم السابقة قد قالت: مثل هذا القول لأنبيائها ورسُلها. وهكذا قال قوم هود له (عليه السلام): (إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا) (١٣) .

إنّ هذه الآية إذا ضُمَّت إلى الآية ٣٨ من سورة الزمر - التي ستأتي لاحقاً - تدل على أنّ المشركين كانوا يعتقدون باستقلالية الأصنام في تأثيرها نفعاً وضرراً عن الله تبارك وتعالى. ويزعمون أن الأصنام لها القدرة على أن تُجَنَّ أو تُهْلِكَ مَنْ يَتَعَرَّضُ لها. ولردّ مثل هكذا خرافة وأوهام يقول الله تعالى: (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ) أي أن الله تبارك وتعالى يكفي لحماية نبيّه (صلى الله عليه وآله) وليس للأصنام أيّ تأثير عليه. وهكذا سيأتي في الآية ٣٨ أن الأصنام ليس لها نفع ولا ضرر.

الآية السادسة:

(وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ) (١٤) .

معنى «تدعون» من وجهة نظر القرآن نفس معنى «تعبدون» - سوف نوضح هذا البحث لاحقاً - ونعني كل ما تعبدون من دون الله. «هُنَّ»: هذا الضمير يعود إلى الأصنام. وهنا يطرح السؤال التالي: لماذا استعمل ضمير المؤنث للأصنام؟

(١٢) الزمر: ٣٦ - ٣٧ .

(١٣) سورة هود: ٥٤ .

(١٤) الزمر: ٣٨ .

وللإجابة على السؤال نقول: من المحتمل أن يكون بسبب تسمية المشركين للأصنام بأسماء الأنثى، مثل «اللات والعزى».

لقد أشرنا في البحوث السابقة الى أن المشركين يعتقدون بأن الأصنام لها تأثير مستقل عن الله تعالى.

فمن هذه الآية والآيتان السابقتان نحصل على أن المشركين يعتقدون باستقلالية الأصنام والأوثان في تأثيرها نفعاً وضرراً بشكل لا يشوبه شك.

فالآية ٣٨ متممة للآية ٣٦ والآية ٣٦ توضح تهديدها وتبين أن الله تبارك وتعالى كاف لعبده وحام له - المقصود من عبده النبي (صلى الله عليه وآله) - والآية ٣٨ تبين هذا المعنى بعبارات أخرى من جملتها «حسبي الله» - وتعني وحده يكفيني ويحميني ولا أحتاج لغيره - جاءت لتتم المعنى المطلوب.

وهذا أيضاً يُثبت أن المشركين كانوا يعتقدون باستقلالية غير الله تعالى في التأثير نفعاً وضرراً وهو دليل إضافي يضاف الى الأدلة السابقة في هذا الجانب.

وجملة «هل هن كاشفات ضره»: تنفي أن يكون للأصنام القدرة على جلب النفع والضرر وهذا النفي دليل على أن المشركين كان لهم مثل هذه العقيدة - أي أن الأصنام تنفع وتضر - وهذا الكلام ينسجم مع القول باستقلالية الأصنام عن الله في تأثيرها نفعاً وضرراً.

وجملة «أفرايتم»: تدل بوضوح على أن عقيدة المشركين في الأصنام ونمط تفكيرهم هو أن الأصنام تضر وتنفع.

فجميع القرائن التي ذكرناها شاهدة على أن المشركين كانوا يعتقدون باستقلالية الأصنام والأوثان عن الله تعالى في تأثيرها نفعاً وضرراً فأحياناً يقول تعالى: أن الأوثان لا تنفع ولا تضر ولو كان غير ذلك - أي الاعتقاد بأن للأصنام تنفع وتضر وكان ليس بشكل مستقل عن الله تعالى بل بإذنه تعالى - لما كان المشركون يواجهون بهذا الأسلوب من الخطاب من قبل الله تعالى وإنما كان الأنسب أن يواجه بهذا الأسلوب وهو: ما هو الدليل على أن الله قد فوض للأصنام النفع والضرر.

ويستفاد أيضاً مما جاء في التفسير المبين: أن اعتقاد المشركين في الأصنام أنها تنفع وتضر بشكل مستقل عن الله تعالى.

هكذا جاءت عبارة «التفسير المبين».

«يعترفون بأن الله خالق كل شيء ومع ذلك يعبدون سواه ولا بدع فإن الجاهل بجهله يدين بتنافر

وتناقض».

إنّ التضاد بين عقيدتين يتوقف على أن الأصنام تنفع وتضرّ مع الله وتنفع وتضرّ بشكل مستقل عن الله تعالى.

وهذا غير ممكن من ناحية نظرية وأما تأثيرها بشكل غير مستقل عن الله فلا يوجد فيه إشكال من ناحية نظرية وهذا كما نعتقده في تأثير الأنبياء والأئمة بأنّه بإذن الله تعالى وليس بشكل مستقل عنه تعالى على الرغم من أنّ هذه العقيدة تحتاج الى دليل من ناحية ثبوتها عملياً ونحن لدينا الدليل على ثبوت هذه الميزة للأنبياء والأئمة.

ولو نظرنا بشكل دقيق للأمور نرى أننا نحن المسلمون وأهل التوحيد نتورط أحياناً بالشرك الخفيّ ونجمع بين عقيدتين متناقضتين. فمن ناحية نعتقد أن تدبير الأمور في العالم كله بيد الله تعالى وحده لا شريك له في ذلك ومن ناحية أخرى نقول: لولا فلان أو الأمر الفلاني لكنا قد هلكنا، لولا الطبيب ومعالجته لنا لكنا قد متنا نغفل عن السبب الأصلي ونتوجّه الى السبب الظاهري القريب.

قال تعالى: (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)^(١٥).

روى عن الإمام الصادق (عليه السلام): «أنّه قول الرجل: لولا فلان لهلكت ولولا فلان لضاع عيالي جعل لله شريكاً في ملكه يرزقه ويدفع عنه. فقيل له (عليه السلام): لو قال: لولا أن منّ عليّ بفلان لهلكت؟ فقال: لا بأس بهذا»^(١٦).

الغافلون من المسلمين بسبب الجهل والغفلة يجمعون أحياناً بين عقيدتين متضادتين. بالتأكيد أن المقصود من الجهالة هو عدم التعقّل بمعنى أننا لو فكّرنا بشكل عقلائي نحصل على نتيجة مؤدّاها: إنّ اجتماع هذه العقائد المتضادة غير ممكن، ولكن عندما نعيش في حالة الغفلة وتغطي قلوبنا الحُجب سوف نعتقد بمؤثرين ويغفلون عن الله تعالى. وسوف يتبيّن لاحقاً ملاك الشرك الخفي والشرك الجليّ.

ونوضح أيضاً جذور الجهل عند المشركين وأسبابها ومنها التقليد الأعمى للآباء والأقرباء.

فالهدف من بعثة الأنبياء هو إيقاظ الناس من الغفلة ورفع الحجب المتراكمة على القلوب وتنوير العقول.

يقول الإمام عليّ (عليه السلام): «فبعث فيهم رسله وواتر إليهم أنبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته ويُذكروهم منسي نعمته ويحتجّوا عليهم بالتبليغ ويشيروا لهم دفائن العقول ويروهم آيات المقدرة»^(١٧).

(١٥) يوسف: ١٠٦.

(١٦) تفسير مجمع البيان ج ٥ ص ٤٦٢ ذيل الآية ١٠٦ سورة يوسف.

(١٧) نهج البلاغة، خطبة: ١.

الآية السابعة:

(وَلَنِّينَ سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ) ^(١٨) .

العزیز: بمعنى القادر الذي لا يُقهر ولا يُغلب.

الآية الثامنة:

(وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ* وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ*) وَلَنِّينَ سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَهُمْ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ) ^(١٩) .

توضيح:

«ولن سألتهن من خلقهم»: هناك اختلاف في تحديد المراد من الضمير «هم». فقد جاء في تفسير مجمع البيان: أن الضمير في الفعلين يعود على الوثنيين. بمعنى لوسألت هؤلاء المشركين من الذي خلقكم؟ يجيبونك: الله الذي خلقهم ^(٢٠) . وفي تفسير كنز الدقائق: «لئن سألت العابدين أو المعبودين» ^(٢١) . بمعنى من المحتمل أن الضمير يعود على كليهما أي لئن سألت المشركين أو ولئن سألت الأوثان.

والاحتمالان موجودان في تفسير القرطبي ^(٢٢) أيضاً. الآن لو كان الضمير يعود على المشركين يصبح المعنى هكذا: يا أيها المشركون إن الله تعالى خلقكم وإليه تدبير أموركم فمن غير المعقول توجهكم لغيره من الأوثان. ولو كان الضمير يعود على الأوثان فإنه سوف يدل بشكل أطف على هذا المعنى وهو كما يلي:

(١٨) الزخرف: ٩ .

(١٩) الزخرف: ٨٥ - ٨٧ .

(٢٠) تفسير مجمع البيان.

(٢١) تفسير كنز الدقائق ج ٩ ص ٣٨٠ .

(٢٢) القرطبي ج ١٦ ص ١٢٢ .

يا أيّها المشركون إذا كان الله تعالى هو الذي خلق الأصنام وأنكم تعترفون بذلك فكيف تتوجهون إليها من دون الله تعالى في حال أن جميع ما تملكه هذه الأوثان هو الله تعالى. ويمكن القول أن الضمير يعود على كلا الاحتمالين أي المشركين والأصنام. أي أنكم تعترفون بأن الله تعالى خالقكم جميعاً أنتم والأوثان.

«الشفاعة»: سوف يأتي بحث موسّع في الشفاعة نوضّح من خلاله هل المقصود الشفاعة الدنيوية أم الآخروية؟

ولو كان المقصود منها بالآخروية، كيف ينسجم ذلك مع عدم اعتقاد الوثنيين بأصل وجود الميعاد والآخرة؟ سوف نتعرض لذلك بشكل مستقل لاحقاً.

لقد انتهى بحثنا في معتقدات الوثنيين الإيجابية وهي أنّ الله تعالى هو الخالق الرازق المالك المحيي المميت المدبّر، الربّ، الحاكم، المجير منزل الغيث. وقد دلّت على ذلك آيات عديدة من القرآن الكريم.

الاعتقاد بالذرية لله تعالى

لقد كان لبعض الوثنيين مثل هذه العقيدة فكانوا يقولون: أن الملائكة بنات الله. بالتأكيد أن هذه العقيدة لم تقتصر على المشركين وإنما اليهود والنصارى كان لهم مثل هذه العقيدة أيضاً.

فاليهود كانوا يعتقدون بأن «عزير» ابن الله والنصارى كانوا يعتقدون بأن «المسيح» هو ابن الله وفي الحقيقة لم تخل اليهودية والنصرانية من ملاك الشرك وإن كان في الظاهر أن هؤلاء ليسوا من الوثنيين.

هناك آيات في القرآن تتعرض لهذه العقيدة نعرض لها تبعاً:

الآية الأولى:

(وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانُونٌ * بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) (٢٣).

«قالوا اتخذ الله ولداً»: لقد جاء في تفسير الكشاف وتفسير مجمع البيان أن المراد من الضمير في قالوا هم ثلاث مجموعات: اليهود والنصارى والمشركين.

وبين في الآيات السابقة أسماء هذه المجموعات الثلاثة.

وقد بينا في بداية هذا البحث أن اليهود كانوا يعتقدون بأن «عزير» ابن الله والنصارى كانوا يعتقدون بأن «المسيح» هو ابن الله والوثنيين كانوا يعتقدون بأن الملائكة بنات الله.

هذه الآية تبين الثقافة الخاوية للمشركين وأهل الكتاب في المعرفة الإلهية. وتبين مدى الجهل الذي يلف هؤلاء في معرفة الله تعالى. بحيث يضعون الله تعالى بمنزلة مخلوقاته ويعتقدون بأن له صاحبة وأولاد ولا يفوتنا أن الاعتقاد بالذرية والتكاثر يحتاج إلى الزوجة والصاحبة وعليه فمن يعتقد بأن لله ذرية وأولاد لابد أن يعتقد أيضاً بأن له زوجة وصاحبة.

إن هذه العقائد تبين مدى الانحطاط الذي بلغه الوثنيين وأهل الكتاب والسقوط فيوحد الوهم والخيال.

فمرة يعتقدون بأنّ الله تعالى ولد وأخرى يعتقدون بأنّ له صاحبة وزوجة وهو كسائر مخلوقاته يتوالد ويتكاثر.

يقول الإمام عليّ (عليه السلام) : «شبهوك بأصنامهم ونحلوك حلية المخلوقين بأوهامهم»^(٢٤) .
لو نظرنا لمثل هذه العقائد الوهمية يصبح من السهل الاعتقاد بعقائد وهمية أخرى بالقياس للمشركين ويزول التعجب من معتقداتهم الأخرى.
فمثلاً ليس من العجب أن يضع المشركون المخلوقات التي ليس لها حول ولا قوة بمنزلة الله تبارك وتعالى.

وذلك لأنّه من الواضح أنّ من ينزل الله تعالى بمنزلة مخلوقاته بحيث يتناسل ويتوالد ويتكاثر لا يُستبعد أن يُنزل بمنزلة الأصنام التي لا حول لها ولا قوة وينزل الأصنام بمنزلته.
الآية الثانية:

(وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ* بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أُنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)^(٢٥) .

توضيح:

«خلقهم»: هناك ثلاث احتمالات في تحديد المراد من الضمير «هم» كما جاء في تفسير مجمع البيان.

الاحتمال الأول: الوثنيون: أيّ أن المشركين جعلوا الله شركاء من الجن في حين أنّ الله تعالى قد خلق المشركين. وعليه يُحتمل أن يكون غرض الآية هو ما يلي: أنّه من المفروض بكم أن تعبدوا الله وحده لا غيره لأنّه هو الذي خلقهم ولكن هؤلاء يتوجهون الى الأوثان والأصنام ويعبدونها من دون الله.

الاحتمال الثاني: أنّ الضمير «هم» يعود على الجن أي خلق الجن فهؤلاء المشركون جعلوا الجن شريكاً لله تعالى في حين أنّ الله تعالى هو الذي خلق الجن. فيكون الغرض من الآية هو ما يلي: إنّهم يدّعون ان الجن شريك لله تعالى ويعبدونه؟ فهل يمكن أن يكون المخلوق شريك الخالق.

الاحتمال الثالث: أن يكون مرجع الضمير «هم» في «خلقهم» كل من الوثنيين والجن. أي أن الله تعالى خلق الإنسان والجن والوثنيين والعابدين والمعبودين جميعاً وهذا الاحتمال أفضل من الاحتمالين السابقين.

(٢٤) نهج البلاغة، فيض الإسلام، خطبة ٩٠ ص ٢٣٥.

(٢٥) الأنعام: ١٠٠ - ١٠١ .

«الجن»: يوجد احتمالان في تحديد المعنى المراد من الجن كما جاء ذلك في تفسير مجمع البيان.

الاحتمال الأول: المراد من الجن الملائكة لأن معنى الجن هو المخفي والمستتر عن الأعين والملائكة هي كذلك^(٢٦).

الاحتمال الثاني: المراد هو الجن المعروف. ويمكن أن نستفيد من الآية التالية في دعم هذا الرأي (وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا)^(٢٧).

لقد جاء في تفسير مجمع البيان: «يعوذون بمعنى يعتصمون ويستجيرون وكان الرجل من العرب إذا نزل الوادي في سفره ليلًا قال: أعوذ بعزير هذا الوادي من شرّ سفهاء قومه وكان هذا منهم على حسب اعتقادهم أن الجن تحفظهم»^(٢٨).

ويمكن أن تكون هذه الآية قرينة دالة على أن المراد من «شركاء الجن» في الآية التي ندرسها ; الجن المعروف وهو يدل على أن الاعتقاد ببروبية الجن كان متعارفًا في أوساط الوثنيين.

«خرقوا له»: أيّ اختلقوا له وموّهوا وافترخوا الكذب على الله. ونسبوا إليه البنين والبنات فالمشركون قالوا: الملائكة بنات الله والنصارى قالوا: المسيح ابن الله واليهود قالوا: عزير ابن الله.

ويمكن أن نعرف من هذه الآية المستوى المنحط الذي بلغته ثقافة الوثنيين وسيطرة الخرافات عليهم بحيث جعلوا الله تعالى بمنزلة من يكون له ولد ; هذا وإن من ملازمات دعوى الولد أن تكون له زوجة وصاحبة وقد نفى أن يكون له تعالى صاحبة وزوجة كما جاء في الآية ١٠١ من سورة الأنعام: (وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً).

ونستطيع أيضاً أن نعرف من هذه الآية أن اليهود والنصارى كانوا من المشركين. وذلك لأنه جاء في بداية الآية أن المشركين جعلوا الجن شركاء له تعالى .

وأضاف جعلوا له بنين وبنات حيث أن المراد من المجموعة الأولى أهل الكتاب والثانية المشركون.

والظاهر من «خرقوا» يعني المشركون بقسميهم أي الذين يعتقدون بالبنات لله تعالى والذين يعتقدون بالابن لله تعالى فعليه يكون أهل الكتاب من النصارى واليهود مشركين.

الآية الثالثة:

(٢٦) وقد أطلق كلمة الجن على الجنين بهذه القرينة اللغوية وهي الاستتار عن الأعين (هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم) النجم: ٣٢ .

(٢٧) الجن: ٦ .

(٢٨) تفسير مجمع البيان ج ١ ص ١٤٦، سورة الجن الآية ٦ .

(وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ* أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ* وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ* أَوْ مَنْ يُنشِئُ فِي الْحَلِيِّ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٌ* وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْئَلُونَ) (٢٩) .

«وجعلوا له من عباده جزءاً»: والمراد من «الجزء» هو النصيب يعني «حكموا بأن بعض عباده وهم الملائكة له أولاد».

الغرض من هذه الآية إيقاظ المشركين من غفلتهم وارجاعهم الى فطرتهم، وذلك كما يلي: كيف تجعلون لله تعالى البنات وأنتم لا ترضون بالبنات لأنفسكم بحيث إذا بُشِّرَ أحدكم بهنّ يظل وجهه مسوداً وهو كظيم من سوء ما بُشِّرَ به وأنكم تفضلون البنين على البنات. فإذا كان الابن أفضل من البنت فالمفروض أنّ الله تعالى يختار الابن لأنّ البنت في نظركم هي دون الابن.

فغرض القرآن من بيان هذه الأمور هو أن يلتفت المشركون الى قبح عقائد الشرك التي لوّثوا بها أنفسهم وأن يعلموا أنّ عقائدهم ليس لها أساس من الصحة.

وبالخصوص ما أُشير إليه من الآية ١٨ حيث قال: أنّ النساء غالباً ما تميل الى الزينة والتجميل وهنّ في مقام الاستدلال وبيان المقصود أضعف^(٣٠) بالقياس مع الرجال. فكيف تجعلون البنات وهنّ بهذه الأوصاف شركاء لله تعالى.

وفي الآية ١٩ إشارة الى نكتة أخرى لتوضيح العقائد الضحلة والهابطة لهؤلاء؛ وهي كما يلي: هل كنتم شهوداً على أنّ الله خلق الملائكة أنثاً. فإذا لم تكونوا شهوداً فكيف تعتقدون بأنّها أنث؟

الآية الرابعة:

(أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا) (٣١)

الآية الخامسة:

(وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا* مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِابْنِهِمْ كِبَرٌ كَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا) (٣٢) .

توضيح:

(٢٩) الزخرف: ١٥ - ١٩ .
(٣٠) وذلك لأسباب اقتضتها أسباب الخلقة والتكوين في هذه الحياة الدنيا كما وضّح في موضعه وإلا ففي أصل الإنسانية لا يوجد أي فرق وتفاوت وتفضيل بينهما.

(٣١) الإسراء: ٤٠ .

(٣٢) الكهف: ٤ - ٥ .

نستفيد من الآيات السابقة أنّ اعتقاد الوثنيين وآبائهم بأنّ الله ولد لا يوجد عليه أي دليل وبرهان.

وقد جاء في تفسير مجمع البيان حول «واتخذ الله ولداً» أنها كانت تمثل ثلاث طوائف :

١ - المشركون: الذي كانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله.

٢ - اليهود: الذين يعتقدون «عزير» ابن الله.

٣ - النصارى: الذين كانوا يعتقدون «المسيح» ابن الله.

«وكبر كلمة...» هذه الجملة تُبيّن مدى قبح هذه العقيدة الممقوتة.

فكم هي قبيحة هذه العقيدة؛ فمن جانب يعتقد بأنّ الله تعالى خالق السماوات والأرضين ومن جانب آخر يعتقد إنّ الله تعالى ولد فيجعل له ممّا خلق بنين وبنات تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

الآية السادسة:

(وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا) (٣٣) .

توضيح:

«قالوا»: الضمير يعود على المشركين إذ في الآية ٨١ من سورة مريم قال: (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً) تعني المشركين وهذه الآية هي استمرار للكلام السابق.

«تكاد السموات» تُبين هذه الآيات قمة القبح الذي بلغته عقائد هؤلاء.

«وما ينبغي»: وهي تبين علة أن لا يكون له تعالى ولد فمن غير المعقول أن يكون لله ولد وهو خالق السماوات والأرضين وما بينهما وخالق الوثنيين والملائكة فكيف يكون له ولد؟

«إن كل من في السموات...» أي أن جميع الموجودات هي عباد لله لا تملك حول ولا قوة وهو القاهر فوق عباده.

يمكن أن نحصل من هذه الآيات على أنّ مستوى ثقافة الوثنيين في جانب المعرفة الإلهية سطحية ومتدنية وبعيدة كل البعد عن العمق بحيث يجعلون الله تبارك وتعالى كالإنسان

والحيوان يتصاهر ويتكاثر ويتوالد. فلا يُستبعد من هكذا ثقافة حمقاء أن تجعل من الأصنام والأوثان في مستوى الله تعالى.

الآية السابعة:

(وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ* لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ* يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ* وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)^(٣٤) .

توضيح:

من الآيات نحصل على أن الملائكة الذين يعتقد بهم هؤلاء المشركون أنهم بنات الله لا يمتلكون التأثير نفعاً ولا ضرراً إن هم إلا عباد مكرمون لله تعالى ونحصل أيضاً على أنهم كانوا يعتقدون بأن الملائكة تملك الاستقلالية التامة عن الله في التأثير نفعاً وضرراً وتستطيع أن تشفع بدون إذن الله تعالى.

وفي مقام الردّ على مثل هذه العقائد يقول الله تعالى: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَا تَمْلِكُ الْإِسْتِقْلَالِيَّةَ فِي عَمَلِهَا وَتَأْثِيرِهَا وَهُمْ لَا يَسْبِقُونَهُ تَعَالَى بَلْ هُمْ عِبَادُ اللَّهِ مُطِيعُونَ ذَائِبُونَ فِي طَاعَتِهِ وَاللَّهُ تَعَالَى مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ وَيَعْلَمُ بِكُلِّ مَا عَمِلُوا وَيَعْمَلُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى لَهُمْ أَنْ يَشْفَعُوا لَهُ. وَهُمْ مِنْ خَشِيَّتِهِ مَشْفُقُونَ.

لو كان المشركون يعتقدون بشفاعه الملائكة بشكل غير مستقل عن الله تعالى وإثماً بإذنه يشفعون وهو كما نعتقد نحن في الأنبياء والأئمة (عليهم السلام) عند ذلك موضع لورود الآية لأن في هذه الحالة لم يكن المشركون ينفون الأذن الإلهي أي لا يعتقدون بالاستقلال بل يرون أن الملائكة بإذن من الله حتى يتم توبيخهم وإدانتهم ويقول لهم أن الملائكة لا تشفع بدون إذن الله (لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى).

ويستفاد بوضوح من الآية ٢٩ أن المشركين كانوا يعتقدون بألوهية الملائكة بشكل مستقل عن الله تعالى.

فمن هذا الباب قال تعالى في الردّ على المشركين: فَمَنْ يَدَّعِي مِنْهُمْ إِلَهَ إِلَّا هُوَ سَوْفَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ فَهَذِهِ الْعِبَارَةُ تَدُلُّ بِشَكْلِ تَامٍ عَلَى أَنَّ عَقِيدَةَ الْمَشْرِكِينَ فِي الْمَلَائِكَةِ أَنَّهُمْ كَانُوا آلِهَةً يَنْفَعُونَ وَيُضِرُّونَ بِشَكْلِ مُسْتَقِلٍّ عَنْهُ تَعَالَى.

الآية الثامنة:

(مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا أَذْهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ) (٣٥).

توضيح:

هنا نستفيد من هذه الآية أن اعتقاد المشركين بأن لله ولد والله شريك أمر مسلم ومفروغ منه، فمن هذا الجانب تنفي الآية هكذا عقائد. وتقول: ليس له شريك وليس له ولد. لأن تعدد

الآلهة يؤدي الى تمايز الآلهة وأن يذهب كل إله بالذي خلقه كيف ما يشاء ولتسلط بعض الآلهة على بعض ولأختل نظام الخلق والتكوين.

إنّ هذا أحد الأدلة الدالة على أنّ المشركين كانوا يعتقدون أنّ الأصنام مستقلة في تأثيرها نفعاً وضرراً عن الله تعالى وسيأتي تفصيل ذلك في بحث التمانع لاحقاً.

الآية التاسعة:

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا * الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ تَقْدِيرًا) (٣٦) .

توضيح:

«الذي له ملك السموات والأرض»: الظاهر إنّ هذا الوصف الذي بيّن الله تعالى ملكية جميع السموات والأرض هو من الله الذي بيّن أرضية فساد الاعتقاد بأنّ الله ولد وشريك. أيّ أنّ الله الذي له ملك جميع السموات والأرضين وهو الغني المطلق كيف يمكن أن يكون له ولد؟! وأن يكون له شريك؟! وبعبارة أدقّ أنّ الاعتقاد بأنّ الله ولد وشريك سالبة بانتفاء الموضوع. أي لا يمكن أن يتحقق هذا الأمر مازال لا يوجد له موضوعاً يُحمل عليه.

الآية العاشرة:

(فَاسْتَفْتِهِمُ الرِّبَّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهِ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ * فَاتَّوَا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ) (٣٧) .

توضيح:

هذه الآية بيّنت أموراً عديدة ففي بداية الآية يطلب الله تعالى من نبيّه (صلى الله عليه وآله) أن يسأل المشركين كيف جعلوا لأنفسهم البنين وجعلوا لله البنات. في حين أنهم هؤلاء يرون

(٣٦) الفرقان: ١ - ٢ .

(٣٧) الصافات: ١٤٩ - ١٦٠ .

أفضلية الابن على البنت. وبعد ذلك يُزيج الستار عن عدم وجود الدليل المنطقي لدعواهم هذه. فيسألهم من أين عرفتم أنّ الملائكة أناث؟ هل شهدتهم خلقهم؟ وبعد ذلك يُوضح أنّ دعوى أن يكون لله ولد مجرد افتراء ودعوى ليس لها أساس من الصحة.

ارجعوا على عقولكم وابحثوا بها عن الله الحقيقي الواقعي إنّ الله الحقيقي والواقعي لا يمكن أن يكون له ولد ولا يمكن أن يكون له ذرية.

وهذا المعنى كما جاء في الآية الثالثة: (فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ) ^(٣٨).

وبعبارة بسيطة ما هذه الزخارف والأوهام والخرافات التي تعتقدونها في حقّ الله تعالى. أيّة أحكام هذه تطلقونها. فهل يمكن للغني المطلق أن يكون له ذرية.

«أم لكم سلطان» هل لكم دليل على ما تدعون؟ فلو كان صحيح ما تقولونه فهاتوا دليكم؟ لماذا تتكلمون بلا برهان؟

وبما أنكم عاجزون عن إقامة الدليل والبرهان إذن لابدّ أن تقبلوا أنكم تذهبون خلف الخرافات والأوهام.

وأيضاً يقول تعالى: هل إنّ الله تعالى ترك اختيار البنين على البنات.

«مالكم كيف تحكمون أفلا تذكرون» هل تدرون ماذا تقولون؟

ففي هذه الجملة يُبين أنّ بطلان عقيدة أن يكون لله ولد بشكل بحيث لا يوجد هناك إنسان عاقل وطبيعي يعتقد بذلك.

إنّ مَنْ يعتقدون بذلك على الظاهر يعتمدون على الصور الحسيّة المتغيرة.

وأخيراً يقول لهم: إذا كان صحيحاً ما تدّعون فأتوا بالدليل لاثبات صحّته؟

«أصطفى»: الأصل فيه «ءإصطفى» وقد حُذفت همزة الوصل.

«مالكم كيف تحكمون أفلا تذكرون».

هذه الجُمْل تبيّن التعجّب من هذا العمل ومن هذه العقيدة: يا أيّها الوثنيون كيف تُفكرون

في الله. إنّ الله الذي تتصورونه في أوهامكم ليس هو الله كما في الحقيقة والواقع.

«جعلوا بينه وبين الجنة نسباً»: هناك احتمالات في تحديد المعنى المراد من «الجن».

الأوّل: تشير الى عقائد المجوس الذين يعتقدون بيزدان وأهريمن.

وهما أخوان وبما أن الشيطان من الجن فأخو الله إذن من الجن وبينهما علاقة قرابة.

ويزدان هو إله الخير وأهريمن إله الشرّ.

الثاني: المراد من الجن الملائكة وذلك كما بيّنا سابقاً، سُميت الجن جنّاً لاستتارهم عن العيون وبما أن الملائكة غير شاخصة للعيان فأطلق عليها أنها «جن» وبما أنهم من الإناث إذن الصلة الموجودة بينهم وبين الله تعالى هي صلة الإبوة. والذي نستفيدة هنا من هذه الآية - كما مرّ سابقاً - أن ثقافة المشركين بالنسبة للمعرفة الإلهية كانت بمستوى هابط جداً بحيث يجعلون الله تعالى أقرباء وإخوة وبنات. هذه المسألة تبيّن أنّ الإله الذي يتصوره المشركون لم يكن بالإله الحقيقي والواقعي ولو كانوا يعرفون الله حقاً وحقيقة لما كانوا يتكلمون بهذا الكلام المزيف التافه ولما كانوا يعتقدون بمثل هذه العقائد الوهمية وهي تدل على رسوخ هذه العقيدة المنحرفة التافهة في أذهان هؤلاء ممّا يدعو الى مواجهة قويّة معهم لعلهم يفيقون من غفلتهم في المستقبل.

الآية الحادية عشر:

(أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ * إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ * أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى * فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ * وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ * إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً الْأُنثَىٰ * وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا * فَأَعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَن اهْتَدَىٰ) (٣٩).

توضيح:

«اللات والعزى ومناة»: كل واحدة من هذه الأسماء اسم لصنم من الأصنام التي كان يعبدها الوثنيون. وقد جاء في تفسير «الميزان» أنّ هذه الأصنام الثلاثة لها أهمية بالغة جداً لدى الوثنيين ومن هذا الجانب تناول الباري عزّ وجلّ اسم هؤلاء الأصنام الثلاثة من سائر الأصنام الأخرى.

«الثالثة الأخرى»: يوجد فيه وجهان:

الأول: أنهما صفتان جاءتا لأجل التأكيد كما في «يطير بجناحيه» بمعنى أن مناة هي الثالثة من الأصنام وهي غير الأوليتان.

الثاني: «الأخرى» مشتق من «تأخر» بمعنى أن منزلة «مناة» دون «اللات والعزى»^(٤٠).

«إن هي إلا أسماء سميتوها» هؤلاء الشركاء للهوبات الله هي مجرد سلسلة من الأوهام التي اختر عتموها في أذهانكم أنتم وآبائكم وهي ليست أكثر من مجرد أسماء لا حقيقة وراءها في الواقع. وهذا مجرد تلاعب منكم في الألفاظ. ولا يوجد أي دليل من قبل الله على صحة هذه الدعاوى إنما تتبعون ظنونكم وأهوائكم ولستم من أتباع العقل والمنطق.

«قلله الآخرة والأولى» الله مالك السموات والأرضين وإليه المبدأ والميعاد. هذه الجملة تبين خواء الأصنام وأنها لا حول لها ولا قوة وليس لها القدرة والقابلية على الشفاعة كما يعتقد به الوثنيون بأنها تشفع، وإنما الشافعة بيد الله تعالى وحتى شفاعته الشفاعين تحتاج الى الإذن الإلهي ومتوقفة عليه.

«ليُسمون الملائكة تسمية الأنثى»: سموا الملائكة بأسماء مؤنثة لأنهم كانوا يعتقدون بأنها بنات الله علماً لا يوجد أي أساس ودليل منطقي لهذه الدعوى والتسمية وإنما مجرد اتباع للظنون ولا يمكن أن يكون الظن الأساس في بناء العقيدة وإنما لابد للعقيدة من أن تُبنى على أسس متينة.

«فاعرض عمن تولى عن ذكرنا»:

«ذكر» فسر الذكر بالتوحيد بمعنى أن كل من صدف عن التوحيد والوحدانية فقد أعرض عن ذكره تعالى.

«ذلك مبلغهم من العلم»: أي أن تبنيهم لمثل هذه العقائد التي ليس لها أساس من الصحة وتركهم للتوحيد هو قمة ما يمثلهم وعيهم وفهمهم.

لقد تم إفحام المشركين بهذه العبارة بشكل مدروس ومتقن.

أراد أن يقول تعالى: أن هؤلاء لو كان لديهم مستوى عال من الوعي والإدراك والفهم لما كانوا يقتفون سير الظنون والتقليد الأعمى.

كان المفروض أن يقتفوا سير العلم واليقين ولا يسمحوا لأنفسهم أن يجعلوا لله شركاء وذرية.

ولا يخفى إن أكثر المفسرين قالوا: «ذلك» اسم إشارة للذين اختاروا الحياة الدنيا على الآخرة.

الآية الثانية عشر:

(٤٠) تفسير مجمع البيان ذيل الآية.

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) (٤١) .

«الصمد»: الغني غير المحتاج الذي لا جوف له (٤٢) .

«كفوًا»: الكفو أي النظير كالشريك والصاحبة.

استحباب قراءة سورة التوحيد في الصلوات لها دلالة واضحة على أن عقيدة الشرك كانت راسخة جداً في الأذهان (٤٣) ومن خلال هذه التوصيات والتأكيدات يُريد الله تعالى أن يقضي على هذه العقيدة.

فعقيدة الشرك والذرية كانت سلسلة من الأوهام التي استحكمت في أذهان هؤلاء. ومن خلال هذه السورة أراد تبارك وتعالى أن يُنظف الأذهان من هذه العقائد ويُطهرها. الآيات التي تدلّ على أنّ المشركين كانوا يعتقدون بأنّ الله ذرية وأولاد لم تنحصر بالآيات التي ذكرناها وإلّا هناك آيات عديدة أخرى تدلّ على هذه العقائد. ولمزيد من التحقيق يمكن مراجعتها وهي الآية ١١١ من سورة الإسراء والآية ٣٤ و ٣٥ من سورة مريم والآية ٦٨ من سورة يونس والآية ١٠١ من سورة الأنعام والآية ٨١ من سورة الزخرف والآية ٤ من سورة الزمر والآية ٣ من سورة الجن.

الاعتقاد بأنّ الله صاحبة

من العقائد التافهة للمشركين اعتقادهم بأنّ الله تعالى زوجة وصاحبة ; هذه العقيدة وإن كانت آيات القرآن الكريم لا تُصرّح بها إلّا أننا يمكن أن نجزم بوجودها من خلال آيات القرآن الكريم التي ينفي بها الله تعالى فيها نسبة الزوجة والصاحبة له.

لاحظوا هذه الآية: (وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا * وَأَنَّهُ كَانَ يَفُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا) (٤٤) .

(٤١) الإخلاص: ١ - ٤ .

(٤٢) تفسير عليّين ص ٦٠٤ .

(٤٣) في عصر نزول القرآن الكريم.

(٤٤) الجن: ٣ - ٤ .

رفض التوحيد

من العقائد الفجة للمشركين الرفض غير الطبيعي للوحدانية وأن يذكر الله تعالى وحده. لكنهم يستبشرون عندما تذكر آلهتهم . وهناك آيات عديدة تبين ردود أفعالهم السلبية البالغة واشتمئزازهم عندما يذكر الله وحده . هناك آيات عديدة تدل على أنهم عندما يذكر الله الواحد يُبدون ردود أفعال سلبية بالغة ويشتمئزوا من ذلك عندما يسمعون التوحيد لله يفرّون ولم يكن لديهم استعداد على قبول ذلك في حين على العكس عندما تُذكر آلهتهم يستبشرون لذلك. نتعرّض للآيات التي تناولت هذه المسألة:

الآية الأولى:

(وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِرْتَ بِكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا) (٤٥) .

توضيح:

«أكِنَّة» جمع كنان» أي الغطاء (٤٦) .

«يفقهوه» هناك حتمالان:

الأول: كراهة أن يفقهوه.

الثاني: لنلا يفقهوه.

«نفوراً»: ورد في الكشف له معنيان:

الأول: مصدر وهو مفعول مطلق يُفيد التوكيد. بمعنى «نفروا نفوراً» «ولوا إيلاءً» فرّوا أيّ فرار وغابوا أيّما غياب.

ثانياً: «نفور» جمع نافر مثل قعود «قاعد» بمعنى ولّوا نافرين بمعنى فرّوا وهم بحال النفرة والاشتمئزاز.

أيواحد من هذين المعنيين يدل على ما تُريد اثباته: وهو رفض المشركين لعقيدة التوحيد والنفرة منها.

(٤٥) الإسراء: ٤٦ .

(٤٦) تفسير مجمع البيان ج ٤ ص ٢٨ .

ويمكن أن نفهم نكتة أخرى من هذه الآية وهي أن علة هروب هؤلاء من القرآن كان بسبب أن القرآن يدعو الى التوحيد ولو لم يكن يدعُ الى التوحيد لما كانوا يفرّون منه (وَإِذَا ذُكِّرْتُ بِرَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا..) إنهم يفرّون عندما يُذكر التوحيد في القرآن الكريم.

الآية الثانية:

(وَإِذَا ذُكِّرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)^(٤٧) .

هذه الآية تدل بصراحة على المعنى الذي نحن بصدده.

الآية الثالثة:

(... كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ...) ^(٤٨) .
هو كما جاء في تفسير الكشاف^(٤٩): «ما تدعوهم إليه من إقامة دين وتوحيد».

الآية الرابعة:

(أَجْعَلِ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ* وَأَنْطَلِقَ الْأَمَلَاءُ مِنْهُمْ أَنْ أَمْشُوا وَأَصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ* مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ) ^(٥٠) .

توضيح:

من الضروري أن نُذكر أن الآيات السابقة واللاحقة للآيات أعلاه جاءت في مسألة تكذيب لنبوّة النبي (صلى الله عليه وآله). وكانوا متعجبين من أن يكون شخص ما نبياً ومبعوثاً للبشرية وهذا الشخص هو يتيم أبي طالب أي محمّد بن عبدالله وهو فقير ليس لديه مال وثروة، وكانوا يقولون لِمَ لم يُبعث من سادة قريش وأترافها من أصحاب المال والثروة والمكانة الاجتماعية؛ ولن يُوحَ إليهم.

لقد جاء في تفسير مجمع البيان في شأن نزول هذه الآيات: إنّ أشراف قريش وهم عشرون منهم الوليد بن المغيرة وهو أكبرهم وأبوجهل وأبيّ وأمّية ابنا خلف وعتيبة وشيبة

(٤٧) الزمر: ٤٥.

(٤٨) الشورى: ١٣.

(٤٩) تفسير الكشاف.

(٥٠) سورة ص: ٥ - ٧.

ابنا ربيعه والنضر بن الحارث، أتوا أباطالب وقالوا: أنت شيخنا وكبيرنا وقد أتيناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك فإنه يسفه أحلامنا ويشتم آلهتنا فدعا أبوطالب رسول الله (صلى الله عليه وآله) وقال: يا ابن أخي هؤلاء قومك يسألونك فقال: ماذا يسألوني؟ قالوا: دعنا وآلهتنا ندعك وإلهك فقال (صلى الله عليه وآله): أتعطوني كلمة واحدة تملكون بها العرب والعجم؟ فقال أبو جهل: لله أبوك نعطيك ذلك عشر أمثالها، فقال: قولوا: لا إله إلا الله فقاموا وقالوا: أجعل الآلهة إلهاً واحداً فنزلت هذه الآيات^(٥١).

نستفيد من الآيات السابقة بعض النقاط:

الأولى: إنّ الاعتقاد بالتوحيد وترك عبادة الأصنام كان في غاية التعجب لدى المشركين. كما جاء «إنّ هذا لشيء عجاب» و«عجاب»: هو صيغة مبالغة من التعجب. حتى قيل أنّ هذه المسألة مستحيلة ولم يكن يتوقعون أن يطرح مثل هكذا اقتراح عليهم ولا يمكن أن يُصدق. نلفت النظر الى هذه النكتة ستساعدنا لاحقاً في بحثنا في مسألة أنّ المشركين هل كانوا يعتقدون باستقلالية آلهتهم عن الله أم أنها غير مستقلة في التأثير نفعاً وضراً. ومن الواضح أنهم كانوا يعتقدون باستقلاليتهما عن الله تعالى وإلا فإن لم يكن كذلك فإن ترك عبادة الأصنام والتوحيد الإلهي لم يكن له موضع للتعجب.

الثانية: لم يكن لزعماء الكفر أيّ جواب منطقي لمقترحات النبي (صلى الله عليه وآله) عليهم وإلّا كانوا يواجهونه (صلى الله عليه وآله) بالحيرة والتعجب والتشكيك.

الثالثة: يدعون بعضهم البعض للثبات على الديانة الوثنية «واصبروا على آلهتكم» أي اثبتوا على عبادة آلهتكم واصبروا على دينكم وتحملوا المشاق لأجله فاليوم يوم الاستقامة والثبات والدفاع عن عبادة الأصنام.

الرابعة: جاء في تفسير الكشاف في: (إنّ هذا لشيء يُراد) أي أن هذا الأمر عبادة الأصنام يُريده الله تعالى ويحكم بامضائه وما أراد الله فلا مردّ له ولا ينفع فيه إلا الصبر^(٥٢) وأننا سوف ننتصر على محمد.

فلو كان المعنى كما ذكره صاحب تفسير الكشاف إذن لابد أن نقول إنّ الوثنيين لم يكونوا يعتقدون إنّ الله يرضى على الديانة الوثنية فقط بل إنّ الله قد أمر بها ورغب .

ويمكن أن نستدل على وجود مثل هذه العقيدة بين الوثنيين من خلال الآيات التي كانت تخاطبهم وتقول لهم: لا يوجد لديكم أيّ دليل وبرهان من قبل الله تعالى ولم يُنزل بذلك سلطاناً.

(٥١) تفسير مجمع البيان ج ٨ ص ٣٧٨.

(٥٢) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٧٣.

ولكن يُحتمل أن يكون معنى الآية: إنّ عبادة الأوثان هي مرادنا وغايتنا. نقدّس الأصنام لأنها آلهتنا وعليه لأجل الدفاع عنها لا بدّ أن نثبت ونصمد ونتحمّل معاناة الدفاع عنها.

الخامسة: (إنّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ) وهو قول المشركين هذا الذي يدعوننا إليه محمّد من التوحيد وخلع الأنداد من دون الله محض كذب وافتراء.

تبيّن هذه الجملة العقيدة الراسخة لهؤلاء في دينهم ووثنيّتهم بحيث يرون العقيدة التي تخالف عقيدتهم محض كذب وافتراء وفكرة خيالية.

عقيدة الوثنيين في الأوثان

٢

عقيدة الوثنيين
في الأوثان

يُطرح في البين بحث مهم جداً وهو: هل أنّ الوثنيين كانوا يعتقدون بأن الأوثان مستقلة في تأثيرها عن الله تعالى؟ - أي أنها ندُّ الله تعالى أم أنهم يعتقدون بأنّها غير مستقلة في تأثيرها عن الله تعالى؟ - أي أنها تستمد تأثيرها منه - .

لأجل توضيح المسألة لابدّ من القول: يمكن أن يُتصور نوعان من العقيدة عن الوثنيين. النوع الأوّل: الاعتقاد بالمالك الأحد المهيمن على كل العالم لا يوجد مالك آخر غيره والأوثان مجرد وسائط للفيض وهي مخلوقات مقدّسة. يُوصل الله تعالى من خلالها الفيوضات الى سائر المخلوقات الأخرى.

النوع الثاني: الاعتقاد بأن الأوثان مستقلة في تأثيرها عن الله تعالى وهي ندّ وشريك وتساويه تعالى في قدره ولها حاكمية مستقلة وقدره مستقلة عنه وأنها تنفع الضرّ ولها ربوبية في العالم مثلما لله القدرة والربوبية وبكلام آخر أنّ الله واحد بالعدد يعني يوجد أكثر من رب واحد من هؤلاء الأرباب الله تعالى الأوّل الله والثاني جُلّ، والثالث اللات والرابع عزّى. وبالتأكيد واضح أن الموحّد الحقيقي لله تعالى لا توجد لديه مثل هذه العقيدة فهو يعتقد بالله الواحد بالذات - أي الخالق والمدبّر للعالم - ولا يوجد أحد غيره تعالى مطلق غير محدود وله الولاية والهيمنة على كل العالم. (ليس في الدار غيره ديّار).

بالتأكيد سوف يتوضح المطل بأكثر عندما ننقل لاحقاً أقوال العلماء العظام أمثال العلامة الطباطبائي(قدس سره) وغيره .

النتيجة أن الاعتقاد بالاستقلالية معناه أن غير الله تعالى له تأثير في هذا الوجود بحيث ينفع ويضرّ ويمرض ويُشفى ويُلتجأ إليه في سائر الأمور. فالأوثان تعمل وفق نظام مستقل عن الله تعالى بعد أن توضحّت لنا من ناحية نظرية أنه يمكن أن نتصور أن للوثنيين نوعين من العقيدة لابدّ أن نتحقق ونلاحظ أن الأدلة أيّ من هذين التصورين تُؤيّد.

فهل هي تؤيد الاعتقاد الاستقلالي أم الاعتقاد غير الاستقلالي؟ الأدلة والآيات القرآنية تدل على أنّ الوثنيين كانوا يعتقدون بأنّ الأوثان مستقلة في قدرة تأثيرها عن الله تعالى وهذه بعض الأدلة التي تدل على هذه الدعوة.

مساواة الأوثان بالله تعالى

الدليل الأول: اعتراف المشركين بالتساوي في الآخرة.
أول الأدلة الدالة على أن الأوثان في عقيدة المشركين مستقلة في تأثيرها عن الله: هو أن المشركين كانوا يعتقدون بتساوي الأوثان مع الله في قدرتها على التأثير نفعاً وضرراً.

الآية الأولى:

(وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ* مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ* فَكَبِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ* وَجُنُودَ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ* قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ* تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ* إِذْ تُسَوِّيْكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ* وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ* فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ* وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ)^(٥٣).

توضيح:

«فككبوا...» أي جُمِعُوا وطرح بعضهم على بعض في جهنم، (ككب) معناه في الأصل الطرح والتكرار وتضعيف فاء الفعل، يُفيد تكرار المعنى «هم» يعني الألهة التي يعبدونها.
«الغاوون» أي: العابدون والمعنى: اجتمع المعبودون من دون الله والعابدون لها في النار.

«إن كنا» (إن) مخففة من (إنّ) الثقيلة وفي الأصل «تالله إنّا كنا» حيث حُذِفَ النون والألف منها. يصبح المعنى: قسماً بالله حقاً إنّا كنا في ضلال بين عن الحقّ وذهاب ظاهر عن الصواب إذ سويّاكم بالله وعدلناكم به في توجيه العبادة إليكم. وفي الآية (إذ تُسَوِّيْكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) بيّنت علة الضلالة والانحراف ومعناها إنّ اشتباهنا وخطأنا يكمن في أننا كنا نسويكم ربّ العالمين ونعتقد بأنّ لكم قدرة على النفع والضرر مستقلة.

قولهم: إنّ الأوثان مساوية لله تعالى في قدرتها على التأثير إنّما يصحّ فيما لو كان هؤلاء يعتقدون أن الأوثان مستقلة في تأثيرها عن الله تعالى مثلما يُدير الله تعالى الأمور لوحده وله القدرة والتدبير في هذا العالم.

فالأوثان كذلك لها هكذا قدرة وتدبير أيضاً.

فإرادة القول بالتساوي تتحقق سواء قلنا: بأن الأوثان مساوية له تعالى في تدبير جميع الأمور أو في بعض الأمور ففي أية جهة من القول بالتساوي لابدّ لهم من أن يعتقدوا بأنّ الأوثان ندّ وعدل لله تعالى.

فهؤلاء كانوا يعتقدون أن الأوثان تضرّ وتنفع - سوف نوضح ذلك لاحقاً - وهذا الكلام صحيح فيما لو كانت الأوثان تستطيع بشكل مستقل أن تنفع وتضرّ مثل الله تعالى.

أما لو لم تكن كذلك كما لو أنّ الأوثان غير مستقلة عن الله تعالى وكل ما عندها فهو منه تعالى ففي هذه الحالة لا يصدق هنا أن نقول: أنّ الأوثان مساوية لله تعالى في قدرتها. الحاصل إنّ القول بالتساوي يُلزم كون أن الأوثان مستقلة في تأثيرها عن الله تعالى وأنها أنداد.

«المجرمون» جاءت بمعنيين:

الأول: أولنا الذي اقتدينا بهم.

الثاني: الشياطين.

«الشافعين»: أصدقاء من غير الأقارب.

«صديق حميم»: الأصدقاء من الأقارب.

«حميم» الأهل والأقرباء الذين تربطنا بهم وتربطهم بنا صداقة ومحبة^(٥٤).

المستفاد من معنى الآيات هو: أنّ الوثنيين في يوم القيامة يقولون: حقاً إنّنا كُنّا نعيش في أوهام وخرافات بحيث كنا نتصور أنّ الأوثان مثل الله وتساويه في قدرته في حين هي لم تكن كذلك فهي لا تستطيع أن تنفعنا ولا تنفع نفسها. وأخيراً تُشير الى هذه النكتة.

وهي: إنّ من المحتمل أن يكون سبب حرق الأوثان يوم القيامة في نار جهنم مع إنّ بعضها من الحجر أو الخشب إنما هو للكشف عن خواء هؤلاء وذلتها وأن يرى المشركون بأعينهم ذلتها وأنها لا تستطيع أن تدفع عن نفسها شيئاً.

الآية الثانية:

(.... ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ)^(٥٥).

توضيح:

(يعدلون): أي يرون الأوثان مثل الله ويُساوونها به تعالى.

(عدلت به غيره) يعني «سوّيته به غيره»^(٥٦).

ونظير هذه الآية قوله تعالى: (أَعْلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ)^(٥٧).

يعني: هل يوجد معبود آخر مع الله؟ لا

ربما هؤلاء قومٌ جعلوا المخلوقات بمنزلة خالقهم وساووى بينه وبينهم بسبب الجهل

وعدم المعرفة ونظيرها آية: (وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ)^(٥٨).

(٥٤) تفسير مجمع البيان، تفسير الآية من سورة الشعراء.

(٥٥) الأنعام: ١.

(٥٦) مجمع البيان ذيل الآية.

(٥٧) النمل: ٦٠.

حاصل الاستدلال هو إن كلمة (عدل) بمعنى المثل والمساوي ونستفيد منه أنّ المشركين جعلوا الأوثان في عرضه تعالى وساواها بينها وبينه.

وجاء في نهج البلاغة في مجال مساواة الأوثان بالله تعالى في عقيدة المشركين: «كذب العادلون بك إذ شبّهوك بأصنامهم.. واشهد أن من ساواك بشيء من خلقك فقد عدل بك»^(٥٩).

عبارة المساواة الواردة في خطبة نهج البلاغة تدل بوضوح إنّ عقيدة الوثنيين هي جعل الأوثان والله تعالى في مرتبة واحدة وفي عرض واحد. وبالالتفات الى المطالب التي ذكرت سابقاً ونستطيع أن نستدل بالآيات التي ذكر فيها كلمة (ندّ) و (انداد) أيضاً لاثبات أن الرؤية الثقافية عند الوثنيين في الأوثان أنّها مستقلة في قدرتها عن الله تعالى.

الآية الثالثة:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)^(٦٠).

توضيح:

هذه الآية تُوضح عقائد الوثنيين ثم ترفضها وتقول: يا أيّها الوثنيين أنكم تعتقدون بأن الله نظير وشريك ولا يمكن أن يكون ذلك إنّما الله إله واحد لا شريك له ولا نظير. هذه الآية ونظائرها تُصرّح بأن الوثنيين يعتقدون أنّ الأوثان في عرض الله وفي مرتبته وعلى شاكلته والأوثان مثل الله يعني أنهم كانوا يعتقدون بتأثيرها نفعاً وضرراً بشكل مستقل عن الله تعالى.

بحث في معنى كلمة «ندّ»

في البداية ننقل كلمات اللغويين والمفسرين حول كلمة «انداد» ثم نعمل على أخذ النتيجة من هذه الأقوال:

١ - الندّ: ما كان مثل الشيء يضاده في أموره والنديد والندّ سواء وجمع الندّ أنداد وندّ البعير ندوداً: إنفرد واستعصى^(٦١).

(٥٨) الأنعام: ١٥٠.

(٥٩) نهج البلاغة خطبة ٩٠ ترجمة فيض الاسلام ص ٢٣٥ وخطبة ٩١ ترجمة السيّدان إمامي وأشتياني.

(٦٠) البقرة: ٢٢.

(٦١) معجم العين، مادة (ندّ).

- ٢ - الفرق بين الندّ والمثل هما بمعنى واحد في اللغة وقال بعضهم: لا يُقال الندّ إلا للمثل النادّ أي المخالف من ناددته أي خالفته ونافرتة^(٦٢).
- ٣ - الندّ والنديدة: مثل الشيء الذي يضادّه في أمورهِ وينادّه أي يخالفه من ندّ البعير: إذا نفر واستعصى^(٦٣).
- ٤ - الأنداد: جمع «ندّ» بالكسر وهو مثل الشيء الذي يضادّه في أمورهِ ينادّه: أي يخالفه^(٦٤).
- ٥ - الأنداد والأشباه والأمثال نظائر واحدها ندّ وقيل: هي الأضداد واصل الندّ: المثل المناوئ (ناوَاه مناوأة: عاده)^(٦٥).
- ٦ - نديد الشيء مشاركهُ في جوهره وذلك ضرب من المماثلة فإن المثل يُقال في أي مشاركة كانت فكلّ ندّ مثل وليس كل مثل ندّ... إنّ الندّ يُقال في ما يُشارك في الجهر فقط والشبه يُقال فيما يشارك في الكيفية فقط والمساوي يُقال فيما يشارك في الكميّة فقط والشكل يُقال فيما يشارك في القدر والمساحة فقط والمثل عامّ في جميع ذلك ولهذا لما أراد الله تعالى نفي الشبيه من كل وجه خصّه بالذكر فقال: «ليس كمثله شيء»^(٦٦).
- ٧ - (يقال: لقي القوم أضدادهم وأندادهم أي أقرانهم «الندّ» بالكسر المثل والنظير جميع أنداد)^(٦٧).
- ٨ - (الكفوء: المماثل، الندّ، المثل، الشبه، الشبيه: النظير، الندّ (المثيل)^(٦٨)
- ٩ - الندّ: بكسر النون والجمع أنداد، النظير والمثيل ومنه (فلا تجعلوا لله أنداداً)^(٦٩).
- ١٠ - (قوله أن تجعل لله ندّاً بكسر النون أي مثلاً وجمعه أنداد ويطلق الندّ على الضدّ أيضاً)^(٧٠).
- ١١ - فلا (تجعلوا) نهى. (لله أنداداً) أي أكفاء وأمثلاً ونظراء واحدها (ندّ)^(٧١).
- ١٢ - قال الإمام السجاد (عليه السلام): «ولا ندّ لك فيعارضك»^(٧٢).

(٦٢) معجم الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري.

(٦٣) الفايق في غريب الحديث للزمخشري ج ٣ ص ٢٨٤.

(٦٤) النهاية لابن الأثير ج ٥ ص ٣٥.

(٦٥) مجمع البيان ج ١ ص ٤٦٠.

(٦٦) المفردات للراغب.

(٦٧) تاج العروس.

(٦٨) معجم ألفاظ الفقه الجعفري ص ٣٦١.

(٦٩) معجم لغة الفقهاء، تأليف محمد قلّعجي ص ٤٧٧.

(٧٠) مقدمة فتح الباري لابن حجر ص ١٨٩.

(٧١) تفسير القرطبي ج ١ ص ٢٣.

(٧٢) الصحيفة السجادية الدعاء ٤٧ يوم عرفة.

الخلاصة:

يُستفاد من مجموع الكلمات أنّ المتبادر الظاهر من كلمة «ندّ» معنى المثل والنظير وأحياناً تستعمل بمعنى الضدّ أيضاً. ومن البعض الآخر مثل الأقوال الخمسة الأولى يستفاد منها أن (الندّ) بمعنى المثل. ولكن لها قيد اضافي وهو عبارة عن المثلية التي لها مواجهة ومنازعة مع مثيلها وتتدخل في شؤونها؛ هذه النكته يمكن أن نستفيد منها من كلام (الصحيفة) أيضاً ويستفاد من كلام (مفردات الراغب) أن (الندّ) عبارة عن المشابهة في الجوهر والذات لا في العوارض الأخرى.

النتيجة أن (الندّ) لو كان بمعنى المثل وهو مورد إتيان الجميع لثبت المطلوب الذي ندّعيه. يعنى أن الوثنيين كانوا يعتقدون بأن الأوثان مثل الله ونظيره له وقد نهاهم الله تعالى عن ذلك العمل.

أما لو أخذنا قيد الإضافة بنظر الاعتبار وقلنا ان (الندّ) عبارة عن المثل الذي هو في مواجهة وتنافر مع مثله فإن هذه الدلالة سوف تدل على معنى أوسع من المطلوب الذي ندّعيه لأنها سوف لم تقتصر في دلالتها على أن الأوثان مستقلة عن الله تعالى في قدرة تأثيرها بل تدل على أنها تتدخل في شؤون الله تعالى وتتصرف على خلاف إرادته في العالم. والفخر الرازي أيضاً استفاد من معنى كلمة (الندّ) أن الأوثان في عقيدة الوثنيين أنها مستقلة عن الله تعالى في تأثيرها وهي عدل له وتقع في عرضه ففي ذيل الآية (فلا تجعلوا لله أنداداً) .

يقول: «ما الندّ؟»، الجواب: أنه المثل المنازع وناددت الرجل نافرته من ندّ ندوداً إذا نفر كأن كل واحد من النّدين ينادّ صاحبه الى نافرته ويعانده فإن قيل: انهم لم يقولوا: إنّ الأصنام تنازع الله قلنا: لما عبدوها وسمّوها آلهة أشبهت حالهم حال من يعتقد أنها آلهة قادرة على منازعته»^(٧٣).

ويُستفاد بوضوح من العبارة أعلاه أنّ الفخر الرازي أيضاً سلّم إنّ عقيدة الوثنيين في الأوثان أنها مستقلة عن الله تعالى في تأثيرها وهي في عرضه بل أنها تستطيع أن تُنازع أيضاً.

ولو أخذنا بنظر الاعتبار التعريف الوارد في (مفردات الراغب) عندها لا بدّ أن نقول: أنّ ذات الأوثان كالذات الإلهية في نظر المشركين. وأنها تشبه الله تعالى في الجوهر والذات. والخلاصة أن الأوثان تستطيع أن تُؤدي أعمالاً. كالأعمال التي يُؤديها الله تعالى ويقوم بها. طبعاً هنا سوف تكون في عرض الله لا في طوله أي مستقلة عنه تعالى لا تستمد قدرتها وتأثيرها منه تعالى.

الدليل الثاني: إطلاق الإلهة على الأوثان

الدليل الثاني على أن الأوثان في عقيدة الوثنيين مستقلة عن الله تعالى في تأثيرها وأنها في عرضه هو إطلاق كلمة (إله) و (آله) على الأوثان في آيات قرآنية. وما يظهر ويتبادر من إطلاق كلمة (إله) يدل على إن إطلاق هذه اللفظة على الأوثان كان بنفس المعنى الذي يطلق على الله تعالى وتدل أيضاً أنهم كانوا يعتقدون بآلهة كثيرة أولها الله تعالى والبقية كانت الأوثان فلنقرأ هذه الآيات المباركة:

الآية الأولى:

(وَالَهُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ) (٧٤).

توضيح:

هذه الآية يرى أن جميع الآلهة مرجعها الى الله تعالى ومنحصرة به تعالى وتُعرف هذه الآية الله تعالى أيضاً بأنه الرحمن الرحيم. الظاهر أنه يُريد أن تقول: يا أيها الوثنيون في تصوركم أن الإلهة متعددة في هذا العالم والحقيقة لا يوجد أكثر من إله واحد. إذن الآية لها دلالة على أن الأوثان طُرحت بعنوان (اله) في عقيدة الوثنيين ومن هنا جاء نفي الآلهة في مورد الآية.

الآية الثانية:

(إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَأْمِنُ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (٧٥).

توضيح:

الآيات التي هي قبل هذه الآية جاءت في مجال إدعاء النصارى: أن المسيح (عليه السلام) هو ابن الله ولا يمكن أن يلد أحدٌ بدون أب لذا هو إلهٌ أيضاً. ردّ الله تعالى على دعواهم هذه وقال: إِنَّ قِصَّةَ عِيسَى مِثْلَ قِصَّةِ آدَمَ مِثْلَ خُلُقِ آدَمَ مِنْ تَرَابٍ مِنْ دُونِ أُمِّ وَأَبٍ خُلُقَ عِيسَى بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى بِدُونِ أَبِي. ثم يأمر الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) أن يُباهل النصارى لعدم إيمانهم بالحق.

ولم تتباهل النصارى خوفاً ووافقوا عن دفع الجزية بدل المباهلة. في هذه الآية يقول تعالى: إِنَّ قِصَّةَ عِيسَى الْحَقِيقَةِ هِيَ كَمَا بَيَّنَّا لَكُمْ. فلم يكن إله ولا ابن الله ولا يوجد إله غير الله تعالى.

الآية الثالثة:

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْفَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا الْأَرْضُ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا* لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا) (٧٦).

توضيح:

«لن يستنكف المسيح»: روي أن وفد من نصارى نجران قالوا لنبينا: يا محمد لم تعيب صاحبنا؟ قال: ومن صاحبكم؟ قالوا: عيسى (عليه السلام). قال: وأي مني أقول فيه؟ قالوا: تقول: إنه عبدالله ورسوله، فنزلت الآية (٧٧).

يعتقد النصارى بثلاث آلهة وهي (الأب) و(الابن) و (روح القدس) وقد رفض الله تعالى هذه العقيدة وقال: لا إله إلا إله واحد وهو والله تعالى .

يا أيها النصارى إنكم ترون أن عيسى إله وهو ابن الله والوثنيون يعتقدون بأن الملائكة بنات الله ويطلقون عليها آلهة وفي الحقيقة أن الجميع يعترفون بعبوديتهم لله تعالى.

ومن هنا يقول القرآن لن يستنكف عيسى والملائكة أن يكونوا عباداً لله لأجل أن يتضح أن النصارى والوثنيين كانوا يعتقدون أن عيسى والملائكة لم يكونوا عباداً لله وإنما لهم استقلالية وهم في عرض الله وعدل له لا يستمدون قدرتهم على التأثير منه لأن الاعتقاد بالطولية وعدم الإستقلال لا يُنافي الاعتقاد بأن يكون عيسى والملائكة عباداً لله وإنما في خط العبودية ولم تكن هناك حاجة لأن يقول الله تعالى: أن عيسى والملائكة يعترفون بالعبودية لله. لأنه في هذه الحالة النصارى والوثنيين يكونوا قد اعتقدوا بعبودية عيسى والملائكة.

إنّ كلام القرآن - إنّ عيسى والملائكة لم يَأْبُوا أن يكونوا عباداً لله - تعالى له مورد فيما لو كان النصارى والوثنيون يعتقدون بإستقلال الإثنين أمام الله تعالى. وإلا لا مورد له ويكون خلاف الحكمة المنزه عنها الساحة الإلهية.

٧٦ . النساء: ١٧١ - ١٧٢.

٧٧ . تفسير عليين ص ١٠٥ ذيل الآية.

المراد من (كلمة) حضرت عيسى (عليه السلام) وبما أنه وُجِدَ وخلق بقول كلمة (كن). عبّر عنه بلفظ (كلمة).

الآية الرابعة:

(لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)^(٧٨) .

توضيح:

هذه الآية تدل أيضاً على أن النصارى كانوا يطلقون على عيسى (إله) وأتّهم كانوا يعتقدون بالوهية عيسى، والقرآن يرفض هذه العقيدة وينكرها عليهم ويردّها فيقول: لا يوجد إله إلا إله واحد وهو الله تعالى.

الآية الخامسة:

(قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأَنْذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أُنْذِرْكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بِرِءٍ مِّمَّا تُشْرِكُونَ)^(٧٩) .
وهذه تدل بصراحة أن هؤلاء كانوا يطلقون (إله) على غير الله تعالى ويعتقدون بتعدد الإلهة.

(لتشهدون): ظاهره في أن هؤلاء كانوا يعتقدون بتعدد الإله.
(مع الله) تدل أيضاً على أنهم كانوا يعتقدون بآلهة مستقلة عن الله وعدل له ومساويه له في القدرة وواضح إن صدق كلمة (مع) تتناسب مع القول بالاستقلال والعرضية لا مع القول بالطولية وعدم الاستقلال سيأتي توضيح هذا القسم عندما نشرح الاستدلال الثالث.

الآية السادسة:

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ...) ^(٨٠) .
أرسل نوح ليلبغ قومه أنّهم لا إله إلا الله الواحد. ومن الواضح أن الناس في زمن نوح كانوا يعتقدون بآلهة متعددة.

وهذا يتناسب مع القول بالاستقلال والعرضية لا مع القول بالتبعية والطولية لأنه لو فرضنا أن هؤلاء كانوا يعتقدون بالطولية والتبعية ولم يعتقدوا باستقلال الأوثان لكان من الفروض أن يعترضوا على نوح ويقولوا له: لا يوجد مبرر لأن تدعونا إلى الله الواحد. لأننا نعتقد بالوحدانية وأن الأوثان وسائط للفيض لا أكثر. وهو تعالى جعلها وسائط للفيض وعليه نحن لا نعتقد بعقيدة مخالفة للتوحيد حتى تأتينا وتنقذنا من الضلال.

٧٨ . المائدة: ٧٣ .

٧٩ . الأنعام: ١٩ .

٨٠ . الأعراف: ٥٩ .

ولم يكن هناك موردٌ بَتَاتاً لدعوة الناس الى الوحدانية من قبل الله تعالى.
ونظير هذه الآية: (وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ) ^(٨١) وآية: (وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ) ^(٨٢) وآية (وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ) ^(٨٣) .

الآية السابعة:

(وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيتَىٰ فَارُهْبُون) ^(٨٤) .

توضيح:

(إيائي فارهبون): يظهر منه أن الوثنيين كانوا يخافون الأوثان ويخشونها من أن يصل إليهم منها ضرر أو يمنع مانع من أن يصل إليهم نفعٌ وهذا يدل على أنهم كانوا يرون أن الأوثان مثل الله تنفع وتضرّ وكانوا يعتقدون بحكاميتها المستقلة عن الله تعالى. بالتأكيد أن المراد من (لا تتخذوا إلهين) معناه لا تعتقدوا بأكثر من إله واحد. لا أن معناه أن الاعتقاد بالهين غير مقبول وبأكثر من ذلك مقبول كما قد يتطور ذلك .

الدليل الثالث: المعية

الدليل الثالث على أن الوثنيين كانوا يعتقدون باستقلالية الأوثان وأنها في عرض الله تعالى وعدل له عبارة عن كلمة (مع) في لفظ (مع الله) حيث أن ظهور الكلمة هنا يدل على أنهم يعتقدون بأن الأوثان كفؤ لله ونظير له.
وكلمة (مع الله) جاءت في ستة عشرة مورد في القرآن نتعرض لبعض هذه الموارد وندرسها.

(قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ءَاللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ* أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَعْلَةً مَّعَ اللّٰهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْبُدُونَ* أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَعْلَةً مَّعَ اللّٰهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ* أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَعْلَةً مَّعَ اللّٰهِ

٨١ . الأعراف: ٦٥ .

٨٢ . الأعراف: ٧٣ .

٨٣ . الأعراف: ٨٥ .

٨٤ . النحل: ٥١ .

قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَعَلَّاهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ يَبْدُوُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَعَلَّاهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ^(٨٥) .

توضيح:

(مع) في عبارة (مع الله) ظاهرة في المساواة؛ يعنى: هل أنكم ترون الأوثان كفواً لله وعدلاً له - أي تساويه تعالى في القدرة - نظير الآية نسويكم برب العالمين والمساواة معناها الاعتقاد بأن الأوثان في عرض الله ومستقلة عنه وعدل له وهذا لا ينسجم مع الاعتقاد بالتبعية وعدم الاستقلال لأنه في هذه الحالة لا معنى لوجود كلمة «مع» وذلك لأن جميع ما تملكه الأوثان من قدرة عندئذ فهو من عند الله.

«أما يشركون» فهي في الأصل (أم ما يشركون) أدغمت ميم (أم) في (ما). ومفاد (أم) المساواة يعنى أيهم أفضل الله أم الأوثان ومعناها هل أن الاثنين متساويان؟!

الدليل الرابع: التمانع

الدليل الرابع على أن الوثنيين كانوا يعتقدون بمساواة الأوثان بالله تعالى وأنها عدل له ومستقلة دليل التمانع. لقد بين القرآن الكريم هذا الدليل بشكل ملفت للنظر. وهو من أهم الأدلة في البحث.

وخلاصة الإستدلال بهذا الدليل أن التدبير في جميع الأشياء مساو لعدم تعدد المدبر لتلك الأشياء.

وتدبير الأشياء وإدارتها لا ينسجم مع التعدد بينهما فلو كان هناك أكثر من مدبر في العالم لاختل نظام الوجود فمن وحدة النظام في العالم نصل الى وحدة المدبر للعالم والكون والوجود.

الآية الأولى:

(أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ * لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ)^(٨٦) .

(٨٥) النمل: ٥٨ - ٦٤ .

(٨٦) الأنبياء: ٢١ - ٢٢ .

الآية الثانية:

(مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ)^(٨٧) .

توضيح:

مرّ علينا معنى هاتين الآيتين وهما متقاربتان في دلالتهما. ومفادهما وهي: لو كان هناك أكثر من إله في هذا العالم لفسد النظام الذي يسير وفقه العالم. وهذا الفساد يحدث في إدارة العالم فيما لو كانت الأوثان مستقلة وفي عرض الله تعالى وعدل له كما يعتقد الوثنيون. لأنه لو كانت عقيدة الوثنيين هي: لم تكن للأوثان إرادة مستقلة عن الله تعالى وأن إرادتها وقدرتها في طول إرادة الله وقدرته وأنها تستمدّها من الله تعالى والمؤثر الحقيقي هو الله تعالى والأوثان مجرد معبودات محضة تابعة - كما نعتقد نحن في أئمة أهل بيت النبي(عليهم السلام) - لما كان هناك فسادٌ يحدث في إدارة العالم وذلك لوحدة الإدارة والتدبير في هذه الحالة ولا يوجد هناك تعدد في الآلهة الذي مؤداه الاختلال في توازن العالم ونظامه.

ولأجل تقريب المعنى نقول: كما هو الحال في إحدى المؤسسات أو المدارس يوجد مدير لها ومعاونون له لكن مرجع إتخاذ القرار وتسيير أمور المؤسسة أو المدرسة بيد المدير ولا يؤدي ذلك الى الاختلال في العمل وإنما يبقى تسلسل الارتباط في المراتب والدرجات أمّا الاختلال في العمل والفوضى تنتج فيما لو كان هناك أكثر من مدير في العمل كلّ مستقل عن الآخر وله صلاحية إتخاذ القرار لوحده ففي هذه الحالة سوف يكون الهرج والمرج السمة الحكمة على هذه المؤسسة أو المدرسة.

(إذا لذهب كلّ إله بما خلق ولعل بعضهم على بعض) ومن الواضح جداً إنّ لازم ذلك هو الاعتقاد بأن الأوثان في عرض الله وعدل له لأنّه في هذه الحالة كلّ إله له قدرة مستقلة عن الآخر وبصدد السيطرة على الآخر وتوسيع دائرة إلهيته وهيمنته.

أمّا لو اعتقدنا بالطولية والتبعية سوف تكون المسألة سالبة بانتفاء الموضوع حسب إصطلاح أهل المنطق لأن جميع الأوثان تحت هيمنة قدرة واحدة منذ الأوّل ولا يوجد إلا قدرة واحدة هي القدرة الحاكمة المهيمنة والمسيّرة ولا توجد قدرة لموجود غير الله لتتفع هذه الموجودات في مورد سيطرة بعضها على البعض الآخر. وفي رأينا إنّ دليل التمانع هو أقوى الأدلة وأوضحها.

الدليل الخامس: «من دون الله»

الاستدلال الخامس لاثبات هذا المطلب هو أنّ المشركين كانوا يعتقدون باستقلالية الأوثان أمام الله تعالى وهي في عرضه وعدل له عبارة (من دون الله) وقد جاءت هذه العبارة من آيات متعددة من القرآن الكريم منها:

(وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ...) (٨٨).

توضيح:

عبارة (من دون الله) في هذه الآية وفي آيات أخرى وصفت الآلهة وتدل على أن الأوثان في عقيدة الوثنيين كانت مستقلة وعدل له ومعنى (غير) مساو لمعنى المغايرة والاختلاف بين الأوثان وبين الله تعالى فكلّ منهما في طرف مغاير للآخر وهذا المعنى هو نفس عقيدة: أنّ الأوثان في عرض الله تعالى ومستقلة عنه وندّ له.

ولو كانت عقيدتهم التبعية والطولية وعدم الاستقلال لما كانت تصدق عبارة (من دون الله) هنا أبداً.

لأنه على فرض القول بالطولية أن الله الأحد هو الحاكم على العالم وجميع الأوثان تحت إرادته وقدرته بعنوان وسائط للفيض الإلهي بنفس النسق والترتيب الذي نعتقه في الأنبياء والأئمة.

فإحياء الموتى وشفاء المرضى من قبل عيسى (عليه السلام) والأنبياء (عليهم السلام) والأئمة (عليهم السلام) هو «بإذن الله» لا «من دون الله».

(بإذن الله) معناه أنّ عيسى (عليه السلام) لا يمتلك أيّ إستقلالية في شفاؤه وإحيائه.

ففعل عيسى (عليه السلام) هو عين فعل الله لا يوجد هنا إختلاف وتمايز نظير ما يقوله الأب لخدمته: إفعل جميع ما يأمر بك به ولدي الكبير بإذن مني.

وفي هذه الحالة أمر الولد الكبير لل خادم هو عين أمر الأب لل خادم ليس بمعزل عنه.

التمايز والغيرية تظهر في حالة أن يكون لكل واحد عن الآخر استقلالية في التدبير.

الخلاصة:

إنّ تصرف جميع الموجودات التي هي (غير الله) لو كانت مستمدة منه تعالى وفي طول قدرة وبإذنه فإنّ هذه الأفعال هي عين الفعل الإلهي وتسمى (بإذن الله) أما لو كانت مستقلة

عنه تعالى وهي (من دون الله) وهي عين الشرك وهي نفس الاعتقاد بأن الأوثان مستقلة وفي عرض الله وندّ له.

الدليل السادس: توهين الأوثان

الاستدلال السادس على أن الوثنيين كانوا يعتقدون بإستقلالية الأوثان عن الله تعالى وأنها في عرضه عبارة عن توهين الأوثان من قبل الله تعالى فهي لا حول ولا قوة لها ولا تنفع ولا تضرّ .

يقول تعالى: كل ما موجود في العالم فهو من الله تعالى. الله تعالى هو الذي يُنزل الغيث من السماء. الله تعالى هو المدبّر في السموات والأرض... ثم يقول تعالى: أروني ماذا خلقت أوثانكم وماهي آثار خلقها .

ومن أسلوب مطالبة الله تعالى للوثنيين أن يروه آثار خلق الأوثان في هذا العالم نستدل على أن هؤلاء الوثنيين كانوا يعتقدون بأن الأوثان نظير الله تعالى له آثار الخلق والتأثير في هذا العالم. وأنها تستطيع أن تبرز عضلاتها أمام الله تعالى وتظهر قدرتها بذلك.

ومن هذا الجانب تدل الآيات التي سنقرئها على المعنى المطلوب. وإلا ففي حالة كون عقيدة الوثنيين هي الاعتقاد بتبعية الأوثان وعدم إستقلالها عن قدرة الله وأنها ليس لها أي تأثير من دونه تعالى لكان جواب هؤلاء الوثنيين هنا أمام الله هو: نحن الوثنيون لا نعتقد بأن الأوثان لها القدرة المستقلة على الخلق والتدبير وندّ حتى نبين أثارها وبعبارة أخرى سألبة بإنتفاء الموضوع.

لا يوجد لها أي تأثير حتى يكون له أثر نقوم ببيانه ولا يوجد محل لمثل هكذا توقع. وتوجد آيات عديدة في هذا الجانب ونحن نقنصر على آيتين منهما

الآية الأولى:

(قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِ الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِ الظُّلُمَةُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) (٨٩) .

الآية الثانية:

(خَلَقَ السَّمَوَاتِ بَغِيرَ عَمَدٍ تَرْوُنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَلٍ مُبِينٍ) (٩٠).

توضيح:

(بغير عمد ترونها) جاءت بمعنيين:
الأول: بدون عمد كما ترون أنها بلا عمد.
الثاني: بغير عمد كما ترون أنها بلا عمد.
(رواسي) أي الجبال الثابتة.
(أن تميد بكم): دُكر لها وجهان:
الأول: كراهة أن تميد بكم.
الثاني: لئلا أن تميد بكم.
وفي تفسير مجمع البيان في تفسير الآية ١٥ من سورة النحل والآية ٣١ من سورة الأنبياء

قال: (ميد) بمعنى الاضطراب والحركة في الجهات المختلفة.
(بثّ فيها) أي فرق في الأرض.
(كل دابة) أنواع الحيوانات التي تدب على وجهها.
(زوج): صنف (٩١).

الدليل السابع: (الشرك ظلم عظيم)

الاستدلال السابع على أن عقيدة هؤلاء الوثنيين في الأوثان أنها في عرض الله ومستقلة عنه (إنّ الشرك لظلم عظيم).
(وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) (٩٢).

توضيح:

(٩٠) لقمان: ١٠ - ١١.
(٩١) تفسير مجمع البيان ذيل الآية.
(٩٢) لقمان: ١٣.

(الظلم عظيم): جاء في تفسير الكشاف: (لأنّ التسوية بين من لا نعمة إلا هي منه ومن لا نعمة منه البتة ولا يتصور أن تكون منه ظلم لا يكتنه عظمه). يستفاد من عبارة التساوي التي جاءت في تفسير الكشاف أنّ الزمخشري يرى أنّ الوثنيين كانوا يعتقدون بمساواة الأوثان لله وأنها في عرضه وندّ له. (ظلم) الظلم يصدق في حالة كون الوثنيين يعتقدون بمساواة الأوثان لله تعالى وأنها كفؤ له.

فهنا لم يُراعى حق الله تعالى وجعل الفقير المحض الذي لا حول ولا وقوة له كفؤاً للغني المطلق ومساوي له.

أما بناءً على مراعاة الطولية، والتبعية بين الله تعالى والأوثان وأن جميع ما تملكه من حول وقوة فهو من عند الله تعالى لا يوجد هناك أيّ ظلم وذلك لأنه لم يُبخس حقّ الله تعالى في هذه الحالة.

الدليل الثامن: ألفاظ الشريك والشرك

الاستدلال الثامن لاثبات أن المشركين كانوا يعتقدون باستقلالية الأوثان عن الله تعالى وأنها في عرضه وكفؤ له ألفاظ (الشرك) و(الشريك) وما يُشتق من هذه المادة. لو دققنا النظر في ألفاظ (الشريك) و(الشركاء) و (تشرك) (وأشركوا) وغيرها من استعمالات هذه المادة الأسمية والفعلية والتي جاء في أكثر من عشرين آية من آيات القرآن الكريم. وكذلك لو دققنا النظر جيداً في تشهد الصلاة: (أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له)، لاستطعنا أن نقول أن جميع هذه الآيات تدل على أن المشركين كانوا يعتقدون باستقلالية الأوثان عن الله تعالى وأنها كفؤ له وأنها في عرضه وذلك لأن صدق لفظ الشريك يكون في مورد يتشارك أكثر من شخص في شيء ما على أن يكون لهم حق التصرف فيه في عرض واحد على نحو لا يكون لأي من الشركاء على شريكه أيّ سلطة بل كل شريك كفؤ لشريكه الآخر.

فمثلاً لو قيل: بأن زيداً وعمراً شريكان في هذه الدار فمعناه أن لكل منهما سهم من ملكية هذه الدار.

فهناك فرق بين أن يكون زيد وعمرو شريكين في الدار وبين أن يكون زيد مالِكاً للدار لوحده وعمرو مستأجر الدار. ففي الحالة الثانية لا توجد ملكية لعمر في الدار واثماً هو مستأجر للدار. ووضعت الدار تحت تصرفه بعنوان الاستعارة والأمانة ليستفاد منها.

لذلك لا يُقال عُرفاً أنّ عمرو المستأجر للدار شريك لزيد المالك لها. أما في الحالة الأولى فأنهم يرون عمرواً شريكاً في الدار الى جانب زيد.

ففي الحالة الأولى أنواع التصرفات في الدار من قبيل البيع والشراء متوقفة على إذن الإثنين لأنهما يملكان في عرض واحد بخلاف الحالة الثانية فإن زيد يمتلك كافة الصلاحيات لوحده وليس لعمرو أي شأن في البين.

فالحالة الأولى هي حالة العرضية في العلاقة وأما الثانية فهي الطولية في العلاقة. فلو أنّ الوثنيين كانوا يعتقدون بالأوثان بعنوان الشريك والشركاء لله تعالى - وقد نهى الله تعالى عن اتخاذ الشريك - فمعناه أنّ عقيدتهم في الأوثان كانت أنّها كفؤ وعدل لله تعالى. فمفاد الشريك هو نفس مفاد التساوي الذي مرّ بيانه في الآية (إذ نسويكم برب العالمين) .

اشتباه الوهابين

لو التفت الوهابيون الى معاني هذه الألفاظ لما اتهموا الشيعة بالشرك لأنّ الشيعة لا يعتقدون أبداً بأن النبي (صلى الله عليه وآله) أو الأئمة (عليهم السلام) في عرض الله وكفؤ وعدل له. وإنّما يعتقدون أنّ الأفعال الصادرة منهم (عليهم السلام) نظير الشفاء وقضاء الحوائج كلّها (بإذن الله) وبقدرة فوّضها الله تعالى لهؤلاء العباد المكرّمون عنده تعالى.

ففي كل لحظة يُريد الله تعالى لهم (عليهم السلام) يستطيعون أن يأتوا بالمعاجز وأن يُحيوا وأن يشفوا وفي اللحظة التي لا يُريد الله تعالى ذلك لا يستطيعون أن يأتوا بتلك الأمور فهم «عباد مكرمون» فهم يفتخرون بعبوديتهم لله (أشهد أنّ محمداً عبده ورسوله).

أرفع درجات الفخر والشرف للنبي (صلى الله عليه وآله) وللأئمة (عليهم السلام) كونهم عباداً لله تعالى، العباد لا يستطيعون أن يكونوا له عدل وكفؤ وشركاء فكما كان عيسى (عليه السلام) يُحيي الأموات ويُشفي المرضى فالنبي (صلى الله عليه وآله) والأئمة (عليهم السلام) أيضاً يفعلون ذلك مثل عيسى (عليه السلام) (بإذن الله) وربّما جاءوا بأمور خارقة للعادة أكثر مما جاء به عيسى (عليه السلام) .

الدليل التاسع: عدم الملكية

الدليل التاسع لاثبات أن المشركين كانوا يعتقدون أنّ الأوثان عدل لله تعالى ومستقلة عنه هذه الآية الشريفة.

(قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ رَعَيْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ) (٩٣) .

توضيح:

(مثقال): وزن.

(فيهما): في خلق السماء والأرض.

(شرك): نصيب.

(له منهم): أي ليس لله من الأوثان.

(ظهير)^(٩٤): معاون.

بيان الاستدلال

نستطيع أن نثبت ما ندّعيه من بعض فقرات هذه الآية الشريفة.

الفقرة الأولى: (من دون الله) فقد مرّ توضيحها في الدليل الخامس.

الفقرة الثانية: (لا يملكون) معناه لا تملك الأوثان مقدار ذرة في السموات والأرض - هذه الفقرة في مقام الاعتراض على المشركين وتوضيح عقائدهم الخيالية والوهمية - تُبيّن أن الأوثان في نظر المشركين وعقيدتهم لها ملكية في السموات والأرض ولها فيهما حصة. ومن الواضح أن الملكية والسهمية والنصيب ملازمة لكون الأوثان عدلاً لله تعالى وهي نفس معنى العلاقة العرضية بين الله والأوثان أنها مستقلة عنه وإلا ففي حالة كون العلاقة طولية بين الله والأوثان فهي تابعة وليس لها أي ملكية مستقلة.

الفقرة الثالثة:

(مالهم فيهما من شرك) الشرك كما بُيّن سابقاً فهو بمعنى النصيب والحصة .

فهذه الفقرة تنفي أن يكون للأوثان نصيب أو حصة في السموات والأرض ومنه نستفيد أن هؤلاء المشركين كانوا يعتقدون بأن للأوثان نصيب وسهم وحصة في السماء والأرض.

الفقرة الرابعة:

(ماله منهم من ظهير) بمعنى ليس لله سبحانه وتعالى من الأوثان من معين ومساعد على خلق السموات والأرض ولا على شيء من الأشياء.

إنّ المساعدة والعون إنما تصدق في مورد يكون فيه قدرة المعين والمساعد غير قدرة وقوة المستعين.

فمثلاً الحمل الثقيل الذي لا يستطيع حمله ويُعني عليه آخر نستطيع أن نحمله كلانا بقوتينا كليهما. فهاتان القوتان في عرض واحد. وإلا لو كانت قدرة الأول في طول قدرة

الثاني ومستمدة منه ففي هذه الحالة لا يصدق المساعدة والعون في هذا المورد فمن نفي المُعين نستفيد أن المشركين كانوا يعتقدون بأن الأوثان مستقلة عن الله تعالى وأنها مُعينة لله تعالى في تسير الأمور وهذا هو الاعتقاد بتساوي الأوثان لله تعالى وأنها عدل له وكفو له وأنها في عرضه.

الآيات ٤٠ و ٤١ من سورة فاطر والآيات ٤ - ٦ من سورة الأحقاف تُفيد هذا المعنى أيضاً.

الدليل العاشر: الاستقلال في التأثير

الاستدلال العاشر لاثبات أن المشركين كانوا يعتقدون بالأوثان أنها عدل لله تعالى وفي عرضه ولها استقلال تام عن الله تعالى في تأثيرها نفعاً وضراً. الآية الكريمة:

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (٩٥).

يفهم من هذه الآية أن المشركين كانوا يعتقدون بتأثير غير الله نفعاً وضراً بحيث يستطيع هذا الغير أن يُمْسِك النعمة والرزق ويستطيع أن يُعْطِي النعمة والرزق.

فهم كانوا يعتقدون بقدرة الأوثان على إيصال الضرر والمنفعة إليهم. فهكذا اعتقاد: أن هذه الأوثان لها تأثير بمستوى إيصال الضرر والمنفعة معناه أنها عدل لله تعالى وكفو له وأنها في عرض الله تعالى.

لذا حصر الله تعالى في هذه الآية فتح باب الرحمة وامساکها به وردّ هذه العقيدة الباطلة لهؤلاء.

الدليل الحادي عشر: الدعوة للتوحيد

الاستدلال الآخر الذي يُستدل به على أن الوثنيين كانوا يعتقدون بالأوثان بأنها عدل لله وكفو له الآيات القرآنية التي تدعو للتوحيد.

فلنتمعن في هذه الآية الشريفة: (إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ* وَيَقُولُونَ أَبْنَا لِنَارِكُمْ أَلِهَتَنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ) (٩٦).

وجه الاستدلال:

إنهم عندما كانوا يُدعون الى التوحيد والإقرار بالألوهية لله وحده كانوا يستكبرون ويرفضون بشدة أن يتركوا آلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله، نستفيد من ذلك أن آلهتهم

(٩٥) فاطر: ٢.

(٩٦) الصافات: ٣٥ - ٣٦.

التي كانوا يعبدونها هي عدل الله وكفو حسب اعتقادهم لأنّ السبب الحقيقي لعدم ترك الآلهة والاصرار على بقائها يتجسّد في هذه الحالة وأمّا اذا كانوا يعتقدون بالتبعية والطولية في علاقة الأوثان مع الله تعالى وأنها غير مستقلة تستمد قدرتها منه تعالى.

فلا يصدق لفظ الترك والانصراف عن الأوثان في هذه الحالة أبداً. لأنّه على القول بالتبعية والطولية وعدم الاستقلال. لا يلزم أن يترك الوثنيون آلهتهم وينثنوا عنها وإنما آلهتهم سوف تقع في طول العلاقة مع الله تعالى وأنها تستمد قدرتها منه وليس لها أيّ تعارض مع الله الواحد المتفرد الأحد.

الدليل الثاني عشر: دعوة النبي(صلى الله عليه وآله) للتوحيد

الاستدلال الآخر على أنّ الوثنيين كانوا يعتقدون بأنّ أوثانهم أنها عدل الله وكفو له وأنها مستقلة عن الله تعالى هذه الآية الشريفة: (اجْعَلِ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ* وَانْطَلِقِ الْمَلَأَ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ* مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا خِثْلَقٌ)^(٩٧).

توضيح:

جاء في تفسير مجمع البيان في بيان معنى هذه الآية - كما مرّ بشكل مفصّل في تبیین عقائد المشركين الباطلة - أن أشراف قريش جاءوا الى أبي طالب وعتبوا على النبي(صلى الله عليه وآله) لتوهينه(صلى الله عليه وآله) أصنامهم وأوثانهم وشكوه(صلى الله عليه وآله) بذلك الى عمّه أبي طالب وطلبوا منه أن يقول له: أن يترك آلهتهم وأوثانهم.

كان جواب النبي(صلى الله عليه وآله): قولوا كلمة (لا إله إلا الله) تملكوا بها العرب والعجم، قاموا من عنده(صلى الله عليه وآله) وقالوا: جعل الآلهة إلهاً واحداً.

هنا ملاحظة دقيقة جداً وهي أنّ تعجّب هؤلاء من دعوة النبي(صلى الله عليه وآله) دعاهم أن يتركوا الاعتقاد بتعدد الآلهة.

ومن الواضح أن تعدد الآلهة يصح فيما لو كانت هذه الآلهة هي عدل الله وكفو له وأنها مستقلة عنه لأنه لو لم تكن عقيدتهم هذه وإنما كانت عقيدتهم أن الأوثان غير مستقلة وأن قدرتها في طول قدره الله وتستمدّها منه تعالى لكانت الدعوة الصادرة من النبي(صلى الله عليه وآله) بتوحيد الآلهة غير صحيحة لأنه لم يكن تعدد في الآلهة أصلاً البداية وإنما هو إله واحد والبقية وسائط لا غير.

وبكلمة أخرى نستطيع أن نقول: أن دعوة النبي(صلى الله عليه وآله) للمشركين الى الوحدانية دليل على أن المشركين كانوا يعتقدون بتعدد الآلهة واستقلالها عن الله تعالى.

الدليل الثالث عشر: الإخلاص في الدين

الاستدلال الآخر لإثبات أن المشركين كانوا يعتقدون أن الأوثان مستقلة عن الله وأنها في عرضه وهي كفؤ وعدل له الآيات الدالة على الدين الخالص والعبودية الخالصة.

فلننظر الى هذه الآية على سبيل المثال:

(قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي) (٩٨).

ونظير هذه الآيات آيات أخرى عديدة في القرآن الكريم العبادة الخالصة تقابل العبادة غير الخالصة.

والدين الخالص يُقابل الدين غير الخالص وتكون العبادة غير خالصة والدين غير خالص في حالة أن نعتقد بتأثير موجودات أخرى بشكل مستقل عن الله تعالى وأن نخشع ونتذل أمام هذه الموجودات وفي هذه الحالة تختلط عبادة الإنسان لله وللموجودات الأخرى وهذا يُبنى على القول باستقلال الأوثان عن الله تعالى في قدرتها.

الدليل الرابع عشر: الرجوع الى الفطرة

الاستدلال الآخر لإثبات أن المشركين كانوا يعتقدون أن قدرة الأوثان تقع في عرض قدرة الله وأنها كفؤه وعدل له الآية التي تضرب مثلاً وتترك الحكم على هذا المثل لوجدان الإنسان وفطرته وهي: (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) (٩٩).

توضيح:

(متشاكسون): مختلفون سيئوا الأخلاق متنازعون وهم متشاجرون متعاسرون في عبد يملكونه يريد كل واحد منهم أن يفرده بالخدمة ثم يكل كل منهم أمره الى الآخر (١٠٠).

(سلمات): أي خالصاً (١٠١).

ضرب في هذه الآية مثلاً وترك الحكم فيها لوجدان الإنسان يصلوا الى بطلان الاعتقاد بتعدد الآلهة في هذا العالم ومضمون هذا المثال أن مجموعة من سييء الأخلاق ومتعددي

(٩٨) الزمر: ١٤.

(٩٩) الزمر: ٢٩.

(١٠٠) مجمع البيان ج ٨ ص ٤٣٩.

(١٠١) المصدر السابق.

الآراء والأهواء يملكون عبداً مشتركون فيه وهو مضطرب غير مستقيم الحال لا يستطيع أن يأتي بشيء ولا يُنتفع به. وذلك لأن كل مالك يأمره بأمر غير الأمر الذي يأمره به المالك الآخر في نفس اللحظة وإذا به يواجه أكثر من أمر في نفس الوقت وعنده سوف يقع في حيرة فهو لا يدري أيّ الأمور الموجّه إليه يؤدي ففي الوقت الذي يريد أن ينجز أحد الأوامر الموجهة إليه من أحدهم يواجه الآخر له أمراً آخر يريد منه انجازه في نفس الوقت وعليه يتبيّن حجم المشكلة التي يواجهها هذا العبد.

أمّا العبد الذي يملكه مولى واحد ويسمع لأوامر مولى واحد ويتحرك وفق أوامر مولى واحد فإن أعماله سوف تكون منظّمة ومرتبّة.

فهل أن هذين العبدین بمرتبة واحدة في تأدية العمل والتنظيم والترتيب؟ أبداً لا. الله تبارك وتعالى يريد أن يُبيّن في هذا المثال أن المخلوقات لو اتبعت آلهة متعددة وكل إله يُسيّر ويدير مخلوقاته وفق ذوقه فالنتيجة سوف تؤدي الى وقوع المخلوقات في الضياع والحيرة ولا يستقيم عمل في هذا العالم.

ومن وجود النظام والترتيب في هذا العالم يتبيّن أن المخلوقات لها إله واحد. وواضح جداً أن هذا المثال يصحّ فيما لو كان لكل واحد من الشركاء ملكية واستقلالية كاملة في اتخاذ القرار وعنده سوف يقع هذا المملوك في ورطة ومشاكل.

لكن لو كان هناك أكثر من مولى يواجههم مولى واحد في سلسلة طولية. فلا إضطراب يقع فيه العبد عندئذ بل كل واحد من الأمرين سوف يكون حاملاً للأمر الموجه إليه من قبل الأمر الذي فوقه حتى نصل الى الأمر الذي بيده القرار. فالكُل يعمل تحت أوامر قائد واحد وحاكم واحد وعنده تنتفي الحيرة والاضطراب عند العبد وعليه نقول: أن الحيرة والإضطراب في عمل العبد متوقفة على استقلالية الشركاء في ملكية العبد وتوجيهه.

نستطيع أن نفهم من هذا المثال جيداً أن الأوثان يمكن أن تكون عدل لله وكفو له فيما لو كانت مستقلة عن الله ولها تدبير مستقل عن الآلهة الأخرى في هذا العالم وعليه سوف يسود العالم في هذه الحالة الاضطراب والفوضى.

اما لو جاءت الأوثان بالمرتبة التالية لله الواحد وتحمل أوامره في سلسلة طولية من المراتب ففي هذه الحالة يكون القائد والرئيس الموجّه واحداً وعليه سوف لا يكون هناك حيرة وإضطراب في عمل العبد. لقد وضّح تعالى في هذا المثال قصة المشركين والموحدين.

فصوّر الوثنيين والمشركين كما في حالة المملوك الأوّل وصوّر المؤمنين والموحدين كما في حالة المملوك الثاني.

بالتأكيد يمكن أن نقول: أن هذا المثال جاء لتوضيح دليل التمانع الذي مرّ في الإستدلال الرابع.

الدليل الخامس عشر: الاشتمزاز من الوجدانية

الاستدلال الآخر لاثبات أن الوثنيين كانوا يعتقدون بأن الأوثان عدل لله وكفو له اشتمزاز الوثنيين من الوجدانية.

لأجل توضيح ذلك نيستفد من بعض الآيات التي تناول ذم عقائد المشركين وواحدة من هذه العقائد المذمومة لهم أنهم كانوا يشتمزون من الدعوة الى وحدانية الله تعالى بشكل كبير جداً.

وكان يصعب عليهم أن يسمعوا هذه الكلمة ويتنقرونها منها كثيراً عندما يُدعون إليها. (وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) (١٠٢).

وجه الاستدلال

نقول في حال كون أن هؤلاء كانوا يعتقدون بأن الأوثان غير مستقلة عن الله وأنها تابع له وتستمد قدرتها منه فلا معنى لأن ينزجروا ويشتمزوا عندما يسمعون كلمة التوحيد ويدعون إليها. وذلك لعدم وجود مشرك في البين ربما كان هؤلاء موحدين أيضاً. فعليه ليس من المفروض أن لا يتنقروا هؤلاء فقط وإنما من المفروض أن يفرح هؤلاء من ذكر الله والتوحيد.

إنّ الاشتمزاز يمكن أن يُتصور في حالة أن يعتقد هؤلاء بأن الأوثان مستقلة عن الله تعالى وأنها كفوه وعدله. في هذه الحالة الدعوة الى الوجدانية وترك الاعتقاد بتعدد الآلهة يؤدي الى الاشتمزاز والتنقروا.

ذكر التوحيد الذي هو بمعنى نفي تعدد الآلهة ونفي الأوثان هو الذي يؤدي الى الاشتمزاز والنفرة.

الدليل السادس عشر: سورة التوحيد

الاستدلال الآخر لاثبات أن الوثنيين كانوا يعتقدون بأن الأوثان عدل لله وكفو له وأنها مستقلة عنه سورة التوحيد:

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) (١٠٣).

هذه السورة شعار أهل التوحيد فهي تُعرّف الله بأنه الواحد الأحد. وتصفه بالغني وتنفي عنه الذرية والولد وأن يكون له عدل وكفو.

(كفو): بمعنى النظير والعدل فلو قيل: أن زيد كفو لعمره في العلم فمعناه أن زيد وعمره متساويان في العلم والمعرفة.

أو أن هذين البطلين متكافئان فمعناه أن لديهما نفس القدرة والقوة. ما يعيننا هو أن نفي (الكفو) دليل على أن المشركين كانوا يعتقدون بأن الأوثان عدل لله وفي عرضه ونظير له.

ومن هذا الجانب نفى الله تعالى أن يكون له كفو. وهي كما في (ليس كمثله شيء) . وحسب الاعتقاد بعلاقة الطولية والتبعية بين الأوثان والله تعالى فسوف لا تكون الأوثان كفواً لله وعدلاً له ولا يوجد حجة لنفي (الكفو) عن نفسه تعالى. إنما يصح ذلك في حال أن نعتقد أن الأوثان نظير لله وعدل له^(١٠٤). فالكفو معناها النظير والمساوي والعدل . الكفو: النظير «شأتان مكافئتان بكسر الفاء أي متساويان وكل شيء ساوئ شيئاً فهو مكافي له»^(١٠٥).

الدليل السابع عشر: الاعتقاد بملكية الأوثان

الاستدلال الآخر لاثبات أن المشركين كانوا يعتقدون بأن الأوثان عدل لله وكفو له الآيات الدالة على أن هؤلاء كانوا يعتقدون بأن الأوثان لها ملكية في هذا العالم. والملكية دليل على أنها مستقلة ومتكافئة مع الله تعالى وإلا ففي القول بالتبعية والطولية لا ملكية في الحقيقة لهذه الأوثان وإنما المالك الحقيقي هو الله تعالى وما عداه فكلهم مخلوقات وعباد له وكل ما تملكه الأوثان فهو منه تعالى.

وهناك آيات عديدة تدل على ذلك فننظر على سبيل المثال في هذه الآية الكريمة: (قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخَذُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)^(١٠٦) .

توضيح:

(١٠٤) لسان العرب ج ١٥ ص ١٧٧.

(١٠٥) مختصار الصحاح ٢٩٤.

(١٠٦) الأنعام: ١٤.

(اتخذ ولياً): جاء في مجمع البيان الولي بمعنى (المالك يعني) (اتخذ مالكا). فالمقصود سوف يكون هكذا: هل أتخذ أوثان - التي هي غير الله تعالى - مولى لي ومالكا. ومنه يفهم أن الوثنيين كانوا يعتقدون بمالكية هذه الأوثان والمالكية كما ذكرنا سابقاً تدل على الاستقلالية للأوثان وأنها عدل الله تعالى.

الدليل الثامن عشر: إطلاق كلمة (الرب)

الاستدلال الآخر لاثبات أن المشركين كانوا يعتقدون بأن الأوثان عدل الله وكفو له إطلاق كلمة الرب على هذه الأوثان.

توجد آيات متعددة في هذا الصدد لكننا نكتفي بذكر آية واحدة فقط.

(قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ) (١٠٧).

وجه الاستدلال أن معنى كلمة الرب هو المدبر ولفظ المدبر والربوبية لها ظهور في معنى الاستقلال بمعنى أن الأوثان نظير الله لها تدبير مستقل.

إلى هنا أقمنا ثمانية عشر دليل على أن الوثنيين كانوا يعتقدون بأن الأوثان في عرض الله وعدل له ومستقلة عنه.

وسوف نشرع بتحليل ونقد الأقوال التي يُستدل بها على أن المشركين كانوا يعتقدون بأن الأوثان في طول الله وأنها تابعة له وأنهم لا يعتقدون باستقلالها.

ادلة الاعتقاد بالطولية (عدم الاستقلال) ونقدها

المقصود من الطولية أنّ الوثنيين جعلوا الأوثان واسطة بينهما وبين الله تعالى. ولم يعتقدوا باستقلالها عن الله تعالى.

الدليل الذي جاؤوا به لإثبات أن إرادة وتدبير الأوثان في طول إرادة وتدبير الله وأنها غير مستقلة وتابعة .

ينحصر في الآيات التي تطلق لفظ الشفيع على الأوثان وأوضح هذه الآيات دلالة (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) (١٠٨) .

هنا طريقتان:

الطريق الأول: رأي صاحب تفسير الميزان في عقيدة المشركين

كان عبدة الأصنام يعبدون الأصنام ليتقربوا بعبادتها الى أربابها وبأربابها الى رب الأرباب وهو الله سبحانه وتعالى: «إننا على ما بنا من ألوان البشرية المادية وقذارات الذنوب والأوثان لا سبيل لنا الى ربّ الأرباب لطهارة ساحته وقدها ولا نسبة بيننا وبينه. فمن الواجب أن نتقرب اليه بأحب خلائقه اليه وهم أرباب الأصنام الذين فوض الله اليهم أمر تدبير خلقه ونتقرب اليهم بأصنامهم وتمثيلهم وإنما نعبد الأصنام لتكون شفعاء لنا عند الله لتجلب إلينا الخير وتدفع عنا الشر فتقع العبادة للأصنام حقيقة والشفاعة لأربابها وربما نسبت اليها» (١٠٩) .

ودلالة كلامه على الطولية واضحة.

المراد من شفاعة الأوثان

ماهو المراد من شفاعة الأوثان؟ هل المقصود منها الشفاعة في الدنيا أم في الآخرة؟ هناك رأيان مختلفان في تحديد المعنى المراد.

(١٠٨) يونس: ١٨.

(١٠٩) تفسير الميزان ذيل الآية.

يميل صاحب تفسير مجمع البيان^(١١٠) وصاحب تفسير الكشاف^(١١١) الى أن المراد هو الشفاعة الأخروية لكن يميل صاحب تفسير الميزان الى أن المراد هو الشفاعة الدنيوية: يعني أن مراد الوثنيين هو أن تكون الأوثان أو أربابها وسيلة لكي ينزل الله عليهم الخيرات ويحلّ مشاكلهم الدنيوية ويدفع عنهم الشرور.

الدليل على هذا الرأي هو: أن المشركين كانوا ينكرون المعاد أساساً فمن هنا كان طلب الشفاعة من الأوثان في الآخرة ليس له مورد وإنما المراد هو الشفاعة الدنيوية. سوف يأتي لاحقاً البحث التفصيلي في المسألة وكاتب هذه السطور يعتقد أيضاً أن المشركين كانوا لا يؤمنون بالمعاد وهذه المسألة تحتاج الى مزيد توضيح ستأتي لاحقاً كما ذكرنا.

الطريق الثاني لاعتقاد المشركين بعدم استقلال الأوثان
الطريق الآخر لبيان الاستدلال^(١١٢) لفظة الشفيع والشفاعة والتي تبين أن الأوثان في عقيدة الوثنيين كانت علاقتها طويلة مع الله لا عرضية. ولتوضيح الاستدلال نقول: إنّ الوثنيين عندما يعتقدون أنّ أوثانهم تستطيع أن تحلّ مشاكلهم مستعينة بالله تعالى فإن هذا إقرار واعتراف منهم أن الأوثان لا حول ولا قوة لها. كانوا يقولون: أرباب الأوثان فقط تستطيع أن تطلب من الله لكي تحلّ المشاكل ولو كانت لها حول وقوة لكانت تحلّ المشاكل بنفسها دون الاستعانة بالله تعالى ولما كان هناك حاجة للوساطة والطلب من الله فلو كان الوثني يعتقد بتأثير الوثن لكان يذهب الى الوثن بشكل مباشر لكي يُدلل له الصعاب ويحلّ مشاكله ولا يحتاج لأن يجعل الوثن واسطة في البين. كان الوثنيون يقولون عن الأوثان: (هؤلاء شفعاؤنا عند الله). وهذا بنفسه دليل على أن الوثنيين كانوا لا يعتقدون بأن الأوثان تؤثر بشكل مستقل عن الله تعالى وإنما كانوا يعتقدون بأنها مقهورة لقدرة الله تعالى وتقع تحت سلطانه وهيمنته وهذا هو معنى الطولية في العلاقة بين الله تعالى والقادر والأوثان التي تستمد قدرتها منه. وهذا المعنى يكمن في الشفاعة فطالب الشفاعة لديه حاجة ومشكلة والشفيع لا يستطيع أن يحلّ مشكلته ويقضيها له، لكن يستطيع الشفيع أن يتوسط لدى مَنْ لديه القدرة على قضاء الحاجات وحلّ المشاكل بما يتمتع به من المكانة والعزّة والاحترام^(١١٣).

دليان لاثبات الاعتقاد بالطولية (عدم الاستقلال) عند المشركين

(١١٠) مجمع البيان ذيل الآية ١٦ من سورة يونس.

(١١١) الكشاف ذيل الآية ١٦ من سورة يونس.

(١١٢) هذا التقريب والبيان من قبل الكاتب.

(١١٣) يوجد مثيل للآية أعلاه، وهو الآية ٣، ٤ من سورة الزمر والآية ٨٥ و ٨٩ من سورة الزخرف وآية ٢٣ من سورة

الأول: قال صاحب تفسير مجمع البيان: (توهموا أنّ عبادة الأوثان أشدّ في تعظيم الله سبحانه وتعالى من قصده تعالى بالعبادة لذا عبادة الله تعالى عن طريق عبادة الأوثان تتم بشكل أفضل مما لو قصدناه بالعبادة بشكل مباشر).

الثاني: لو أخذنا بنظر الاعتبار الآيات القرآنية الأخرى التي تُصرح بأنّ الوثنيين كانوا يعتقدون أنّ الله خلق الأوثان كلّها وهي غير مستقلة عنه تعالى. بل كانوا يعتقدون أنّ الله خلق السموات والأرض وبينهما - ومما لاشك فيه - إن أي قدرة على التأثير نفعاً أو ضرراً يمتلكها الوثن إنما هي امتداد لقدره الله تعالى وذلك لأن الوثن أحد المخلوقات الإلهية وآثاره أيضاً من مخلوقات الله تعالى - فلو أخذنا ذلك بنظر الاعتبار كان لابدّ أن يكون المقصود من (هؤلاء شفعائنا عند الله) عند الوثنيين أن الأوثان تشفع بإذن الله لأنها لا تملك بذاتها حول وقوة ومن هذا الباب كان الذم من قبل الله تعالى للوثنيين هو: أنّه لم يصدر منّا مثل هكذا إذن وتقويض للأوثان.

نقد رأي صاحب تفسير الميزان

وللإجابة عن الرأي الذي جاء في تفسير الميزان نقول:

أولاً: لم يُقدّم صاحب تفسير الميزان أيّ دليل من القرآن لاثبات صحة رأيه. وانما إكتفى بالسرد التاريخي ولا يمكننا أن نستند على النقل التاريخي لوحده لأنه ليس بحجّة.

ثانياً: ما ذكره لا يتناسب ولا ينسجم مع مطالب في مواضع أخرى من تفسير الميزان لها علاقة بالموضوع كما جاء في الآية ٦٨ - ٨٦ من سورة المائدة.

فقال: (القول بأنّ للعالم صانعاً ثم القول بانه واحد من أقدم المسائل الدائرة بين المفكرين تهدي اليه الفطرة المركوزة فيهم حتى أن الوثنية المبنية على الشرك اذا أمعنا في حقيقة معناها وجدناها مبنية على أساس توحيد الصانع وإثبات شفعاء عنده (مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى) وإن انحرفت فيما بعد عن مجراها وآل أمرها الى إعطاء الاستقلال والأصالة الالهة دون الله^(١٤)).

نستفيد عدة مطالب من هذا الكلام:

أولاً: أن التوحيد أمر فطري ومقتضى فطرة كل انسان التوحيد والكلّ وفق الفطرة الإلهية موحدون. (سوف يأتي توضيح هذا المعنى المهم في شرح المباحث اللاحقة).

ثانياً: أنَّ الوثنيين كانوا يعتقدون في البداية بتبعية الأوثان وعدم إستقلالها ولكن بالتدريج انتقلوا الى الاعتقاد بإستقلالها وعدم تبعيتها لقدره الله تعالى.

إننا لا نؤيد القسم الأول من عقيدتهم وهي أنهم كانوا يقولون بالطولية وعدم الاستقلال إلا أن القسم الثاني من عقيدتهم وهي: أنَّهم انتهوا بالتدريج الى الاستقلال والعرضية يدل على أن صاحب الميزان يوافقنا على أن الوثنيين انتهوا الى القول بأن قدرة الأوثان في عرض قدرة اللهوأنها كفؤ الله وعدل له. وهذه النكتة تستحق العناية وتنسجم مع بحث العرضية في القدرة الذي نحن بصدد.

والتقريب الأول الذي نُقل عن صاحب تفسير الميزان لبيان القول بطولية قدرة الأوثان مع قدرة الله لا تنسجم مع المطالب التي ذكرها في ذيل تفسير الآية ٣٦ و ٤) من سورة هود. وقد ذكر في ذيل تفسير الآيات المذكورة من سورة هود ما يلي: ربّما يُظن أن ما ورد في الأدعية من الاستشفاع بالنبي(صلى الله عليه وآله) وآله المعصومين صلوات الله عليهم ومسألته تعالى بحقهم وزيارة قبورهم وتقبيلها والتبرّك بتربتهم وتعظيم آثارهم من الشرك المنهى عنه وهو الشرك الوثني محتجاً بأنّ هذا النوع من التوجه العبادى فيه اعطاء تأثير ربوبى لغيره تعالى وهو شرك وأصحاب الأوثان إنّما أشركوا لقولهم في اوثانهم : إنّ هؤلاء شفعاؤنا عند الله. وقولهم : إنّما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى ولا فرق في عبادة غير الله سبحانه بين ان يكون ذلك الغير نبياً او وليّاً او جباراً من الجبابرة أو غيرهم فالجميع من الشرك المنهى عنه. وقد فاتهم أولاً أن ثبوت التأثير سواء كان ماديا او غير مادى في غيره تعالى ضرورى لا سبيل إلى إنكاره، وقد اسند تعالى في كلامه التأثير بجميع انواعه إلى غيره ونفى التأثير عن غيره تعالى مطلقا يستلزم ابطال قانون العلية والمعلولية العام الذي هو الركن في جميع ادلة التوحيد وفيه هدم بنيان التوحيد. نعم المنقّى من التأثير عن غيره هو الاستقلال عن التأثير ولا كلام لاحد فيه. وأمّا نفي مطلق التأثير ففيه انكار بديهة العقل والخروج عن الفطرة الإنسانية.

ومن يشفع بأهل الشفاعة الذين ذكرهم الله مثل قوله: (وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)(سورة الزخرف، آيه ٨٦) و قوله : «وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَن ارْتَضَى»(سورة الأنبياء : آيه ٢٨). او يسأل الله بجاههم ويقسمه بحقهم الذي جعله لهم عليه بمثل قوله مطلقا : (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)(سورة الصافات، آيه ١٧٣) وقوله : «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا» (سورة المؤمن، آيه ٥١) او يعظمهم ويظهر حبّهم بزيارة قبورهم وتقبيلها والتبرك بتربتهم بما أنّهم آيات الله وشعائره

تمسكاً بمثل قوله تعالى : (وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ) (سوره الحج، آيه ٣٢) وآية القربى وغير ذلك من كتاب وسنة.

فهو في جميع ذلك يبتغى بهم إلى الله الوسيلة وقد قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ) (سورة المائدة، آيه ٣٥) فشرع به ابتغاء الوسيلة، وجعلهم بما شرع من حبهم وتعزيرهم وتعظيمهم وسائل إليه ولا معنى لايجاب حب شيء وتعظيمه وتحريم آثار ذلك فلا مانع من التقرب إلى الله بحبهم وتعظيم أمرهم و ما لذلك من الآثار إذا كان على وجه التوسل والاستشفاع من غير ان يعطوا استقلال التأثير والعبادة البتة.

وثانياً أنه فاتهم الفرق بين أن يعبد غير الله رجاء أن يشفع عند الله أو يقرب إلى الله، وبين أن يعبد الله وحده مع الاستشفاع والتقرب بهم إليه ففي الصورة الأولى اعطاء الاستقلال و اخلاص العبادة لغيره تعالى وهو الشرك في العبودية والعبادة وفي الصورة الثانية يتمحض الاستقلال لله تعالى ويختص العبادة به وحده لاشريك له.

وإنما ذمّ تعالى المشركين لقولهم : (إنما نعبدكم ليقربونا إلى الله زلفى) حيث أعطوهم الاستقلال وقصدوهم بالعبادة دون الله سبحانه، ولو قالوا : إننا نعبد الله وحده ونرجو مع ذلك أن يشفع لنا ملائكته أو رسله وأولياؤه باذنه أو نتوسل إلى الله بتعظيمهم شعائره وحب أوليائه لما كفروا بذلك بل عادت شركاؤهم كمثل الكعبة في الاسلام هي وجهة وليست بمعبودة، وإنما يعبد بالتوجه إليها الله.

وليت شعري ماذا يقول هؤلاء في الحجر الاسود وما شرع في الاسلام من استلامه وتقبيله؟ وكذا في الكعبة؟ فهل ذلك كله من الشرك المستثنى من حكم الحرمة؟ فالحكم حكم ضرورى عقلى. لا يقبل تخصصاً ولا استثناء. أو أنّ ذلك من عبادة الله محضاً وللحجر حكم الطريق والجهة وحينئذ فما الفرق بينه وبين غيره إذا لم يكن تعظيمه على وجه اعطاء الاستقلال وتمحيض العبادة، ومطلقات تعظيم شعائر الله وتعزير النبي (صلى الله عليه وآله) وحبّه ومودّته وحبّ اهل بيته ومودّتهم وغير ذلك في محلها» (١١٥)

خلاصة كلام صاحب تفسير الميزان

يمكننا أن نؤلف بين الكلام المتضاد الوارد عن صاحب الميزان فنحمل ماورد عنه - أن الوثنيين كانوا يعتقدون بتبعية قدرة الأوثان لقدرة الله تعالى على المرحلة الأولى من عبادتهم للأوثان.

بمعنى أنّ الوثنيين كانوا في البدء يعتقدون أن خالق العالم واحد والأوثان موجودات مقدسة تقوم بدور الوسيط بين الخالق وعباده.

ونحمل ماورد عنه - من أن الوثنيين كانوا يعتقدون بإستقلالية الأوثان وأنّ قدرتها في عرض قدرة الله تعالى - على المرحلة التالية من عبادتهم للأوثان.

بمعنى أنهم انحرفوا عن الاعتقاد الأوّل - وهو القول بالطولية - وانتهوا أخيراً الى الاعتقاد الثاني - وهو القول بالعرضية والاستقلالية.

وعليه أن الآيات القرآنية التي جاءت فيها لفظ الشفيع بالنسبة للأوثان كما في (هؤلاء شفاعونا عند الله) ناظرة الى عقائد الوثنيين في بداياتها الأولى. والآيات التي يظهر فيها أن الأوثان مستقلة عن الله تعالى ناظرة الى ما انتهت اليه عقيدتهم في هذه الأوثان.

فهذا القول - وضع حد فاصل لتطور عقيدة الوثنيين من القول بالطولية وعدم الاستقلال في المرحلة الأولى الى القول بالعرضية والاستقلال في المرحلة الثانية - مجرد نقل تاريخي لا يوجد عليه دليل من القرآن ويمكن أن يقال في مجال توضيح المسألة: انّ الإنسان لديه عقل ووهم.

فعندما كان الوثنيون ينظرون الى الأمور بعقولهم كانوا يعترفون أن خالق العالم ومدبره إله واحد كما جاء في آيات عديدة يقول فيها تعالى إذا سألت الوثنيين من خلق السموات والأرض ليقولون: الله.

وفق هذه الرؤية لو كانوا يعبدون وثناً إنما كانوا يعبدونه بعنوان أنه واسطة بينهم وبين الله وأنه يشفع لهم.

وأما عندما تُهيمن عليهم أوهامهم والتقاليد العمياء للآباء وأمثالها من أوهام التي تحجب الفطرة الإنسانية وتلوّثها فانهم يردون الى وادي الظلام ألا وهو وادي الأوهام والخيال فعنده يتصورون وجود آخرين غير الله تعالى في هذا العالم فيعبدون الأوثان بعنوان أنها آلهة تؤثر بشكل مستقل وبمعنى أنها شفيع.

نقد الرأي الثاني (عدم استقلال الأوثان في نظر المشركين)

لأجل أن نردّ على هذا الرأي الذي اعتمد على لفظ الشفيع والشفاعة في إثبات معنى الطولية. لا بأس أن نوضح أولاً معنى الشفيع.

فملخص آراء علماء اللغة والفقهاء أيضاً في باب الشفعة كما يلي:
قال البعض: الشفع بمعنى الزوج وهو مقابل الوتر والشافع وهو الشخص الذي يطلب الحاجات لشخص آخر.

وقال آخرون: الأصل في معنى (الشفعة والشفيع والشفاعة) المساعدة والعون وقد لوحظ هذا المنى في مورد الزوجية حيث إن ضم الفردين أحدهما إلى الآخر يؤدي إلى القوة والقدرة^(١٦).

فلو لوحظ في أصل المعنى المساعدة والعون يصبح معنى الآية ما يلي: إن هذه الأوثان أنصارنا عند الله وسوف تساعدنا وتعيننا؛ فلو واجهتنا مشكلة فإن حلها سوف يكون بيدهم. وعليه فإن الآية بهذا المعنى سوف لا تدل على معنى الطولية وإنما تدل على معنى العرضية واستقلال الأوثان.

ولو أخذ المعنى الإضافي بنظر الاعتبار - وهو أن تطلب الأوثان حلّ مشاكلنا عند الله تعالى - لأمكن أن نقرب المعنى في هذه الحالة إلى القول بالطولية وعدم الاستقلال.

وسوف يكون الجواب هكذا: لم يُلاحظ أبداً في معنى (الشفيع) و (الشفاعة) معنى (عدم الاستقلال) في الشافع وإنما يتضمن معنى الزوجية صرفاً مثلما نلاحظ أن معنى (الشفيع) في اللغة هو الزوج والثاني في مقابل (الوتر) فكذلك الشافع والشفيع معناه الشخص الذي صار واسطة لطلب حوائج الغير فلم يأتي في أيّ مورد من هذه الموارد أن الشفيع مستقل أم غير مستقل أمام المشفع.

فيمكن أن يكون مستقلاً ويمكن أن لا يكون.

وهذا ليس معناه أن الشفاعة التي بمعنى الوسطة أنها تتضمن الشافع في طول المشفع. فمثلاً يمكن أن يشفع مدير مدرستين إحداها عند الآخر ويتوسطان بعضهما عند البعض الآخر لحلّ مشاكل الطلاب.

السماح بالشفاعة وعدم السماح بها

(١٦) ولمزيد إيضاح يراجع له المصادر التالية: العين ج ١ ص ٢٦١ وصحاح اللغة ج ٣ ص ١٢٣٨ ولسان العرب ج ٨ ص ١٨٤ وشرح الأزهري ج ١ ص ٤ وتذكرة العلامة ج ١ ص ٥٨٨ وجامع المقاصد ج ٦ ص ٣٤٢ والتحفة السنية ص ٢٣٦ وجواهر الكلام ج ٣٧ ص ٢٣٨ وكشاف القناع ج ٤ ص ١٦٤ وجواهر العقود ج ١ ص ١٨٥.

لابدّ أن نلتفت الى أنّ القرآن الكريم قد نهى عن الشفاعة التي يكون فيها الشافع مستقلاً ولكنه لم ينه عن الشفاعة التي يكون الشافع تابعاً وتقع شفاعته في طول القدرة الإلهية.

لقد وضّح صاحب تفسير الميزان هذا المعنى في شرح الآية (اتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ) (١١٧).

وملخص القول هناك آيات عديدة من القرآن الكريم تدل على أن الوثنيين كانوا يعتقدون بأن الأوثان موجودات تؤثر بشكل مستقل في هذا العالم وأن هذه الأوثان كفؤ لله وفي عرضه وأنها نظير له.

وفي المقابل هناك آيات قرآنية ذات مضمون واحد كانت لها دلالة على أن الوثنيين يعتقدون بأن الأوثان شفعاء ووسائل تقرب لله تعالى (١١٨) وقد وضّحنا في مجال أخذ النتيجة من هاتين المجموعتين من الآيات أن هذا الظهور في الطولية لا يدل على أن الشفاعة تلازم القول بالطولية بل يمكن أن تلازم العرضية أيضاً.

بمعنى أننا نقول: في نفس الوقت الذي كانوا يعتقدون بإستقلال الأوثان وأنها في عرض الله كانوا يعتقدون أيضاً بأنها تستطيع أن تقوم بالشفاعة عند الله.

ولأجل أن يتوضح المطلب أكثر نتناول ما جاء في تفسير الميزان تحت عنوان (كلام في معنى التوحيد في القرآن) (١١٩).

لا يرتاب الباحث المتعمق في المعارف الكلية أن مسألة التوحيد من ابعدها غوراً، وأصعبها تصوّراً وإدراكاً، وأعضلها حلاً لارتفاع كعبها عن المسائل العامة العامية التي تتناولها الأفهام، والقضايا المتداولة التي تألفها النفوس، وتعرفها القلوب. وما هذا شأنه تختلف العقول في إدراكه والتصديق به للتنوع الفكري الذي فطر عليه الإنسان من اختلاف أفراده من جهة البنية الجسمية واداء ذلك الى اختلاف أعضاء الإدراك في أعمالها، ثم تأثير ذلك في الفهم والتعلل من حيث الحدة والبلادة، والجودة والرداءة، والاستقامة والانحراف.

فهذا كله مما لاشك فيه، وقد قرر القرآن هذا الاختلاف في موارد من آياته الكريمة كقوله تعالى: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَؤُا الْأَلْبَابِ) (١٢٠).

(١١٧) البقرة: ٤٨.

(١١٨) الميزان ج ١ ص ١٦٧ ذيل الآية.

(١١٩) الميزان ج ٦ ص ٩٠ ذيل الآيات: ٦٨ - ٨٦ من سورة المائدة.

(١٢٠) الزمر: ٩.

ومن أظهر مصاديق هذا الاختلاف الفهمي اختلاف أفهام الناس في تلقي معنى توحده تعالى لما في أفهامهم من الاختلاف العظيم والنوسان الواسع في تقرير مسألة وجوده تعالى على ما بينهم من الاتفاق على ما تعطيه الفطرة الإنسانية فإلهامها الخفي وإشارتها الدقيقة. فقد بلغ فهم آحاد من الإنسان في ذلك أن جعل الأوثان المتخذة، والأصنام المصنوعة من الخشب والحجارة حتى من نحو الأقط والطينة المعمولة من أبوال الغنم شركاء لله، وقرناء له، يعبد كما تعبد هؤلاء، ويسأل كما تسأل هؤلاء، ويخضع له كما يخضع لها، ولم يلبث هذا الإنسان دون أن غلب هذه الأصنام عليه تعالى بزعمه، وأقبل عليها تركه، وامرأها على حوائجه وعزله.

فهذا الإنسان قصارى ما يراه من الوجود له تعالى هو مثل ما يراه لآلهته^(١٢١) التي خلقها بيده، أو خلقها إنسان مثله بيده، ولذلك كانوا يثبتون له تعالى من صفة الوحدة مثل ما يصفون به كل واحد من أصنامهم، وهي الوحدة العددية التي تتألف منها الأعداد قال تعالى: (وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَابٌ * أَجْعَلِ الْإِلَهَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ)^(١٢٢). فهؤلاء كانوا يتلقون الدعوة القرآنية الى التوحيد دعوة الى القول بالوحدة العددية التي تقابل الكثرة العددية كقوله تعالى: (وَالْهَيْكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)^(١٢٣) وقوله تعالى: (هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ)^(١٢٤) وغير ذلك من الآيات الداعية الى رفض الآلهة الكثيرة، وتوجيه الوجه لله الواحد، وقوله تعالى: (وَالهنا وإلهكم واحد)^(١٢٥) وغيره من الآيات الداعية الى رفض التفرق في العبادة للإله، حيث كانت كل أمة أو طائفة أو قبيلة تتخذ إلهها تخص به، ولا تخضع لإله الآخرين.

والقرآن ينفي في عالي تعليمه الوحدة العددية عن الإله جل ذكره (فإن هذه الوحدة لا تنتم إلا بتميز هذا الواحد من ذلك الواحد بالمحدودية التي تفهره، والمقدرية التي تغلبه، مثال ذلك ماء الحوض إذا فرقناه في أنية كثيرة كان ماء كل إناء ماء واحداً غير الماء الواحد الذي في الإناء الآخر، وإنما صار ماءً واحداً يتميز عما في الآخر لكون ما في الآخر مسلوباً عنه غير مجتمع معه، وكذلك هذا الإنسان إنما صار إنساناً واحداً لأنه مسلوب عنه ما للإنسان الآخر، ولولا ذلك لم يأت للإنسانية الصادقة على هذا وذاك أن تكون واحدة بالعدد ولا كثيرة بالعدد.

(١٢١) الميزان تفسير ذيل الآية ٩ من سورة الزمر.

(١٢٢) سورة ص: ٤ - ٥.

(١٢٣) البقرة: ١٦٣.

(١٢٤) المؤمن: ٦٥.

(١٢٥) العنكبوت: ٤٦.

فمحدوية الوجود هي التي تقهر الواحد العددي على أن يكون واحداً ثم بانسلا ب هذه الوحدة من بعض الجهات تتألف كثرة عددية كما عند عروض صفة الاجتماع بوجه.

وإذا كان الله سبحانه قاهراً غير مقهور، وغالباً لا يغلبه شيء البتة كما يعطيه التعليم القرآني لم تتصور في حقه وحدة عددية ولا كثرة عددية، قال تعالى: (وهو الواحد القهار)^(١٢٦)، وقال: (عَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ* مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَعَابَاؤُكُمْ)^(١٢٧)، وقال: (وما من إله إلا الله الواحد القهار)^(١٢٨) وقال: (لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)^(١٢٩).

والآيات بسياقها - كما ترى - تنفي كل وحدة مضافة الى كثرة مقابلة لها سواء كانت وحدة عددية كالفرد الواحد من النوع الذي لو فرض بإزائه فرد آخر كانا اثنين فإن هذا الفرد مقهور بالحد الذي يحده به الفرد الآخر المسلوب عنه المفروض قبالة، أو كانت وحدة نوعية أو جنسية أو أي وحدة كلية مضافة الى كثرة من نسخها كالإنسان الذي هو نوع واحد مضاف الى الأنواع الكثيرة الحاصلة منه ومن الفرس والبقر والغنم وغيرها فإنه مقهور بالحد الذي يحده به ما يناظره من الأنواع الأخر، وإذا كان تعالى لا يقهره شيء في شيء البتة من ذاته ولا صفته ولا فعله وهو القاهر فوق كل شيء فليس بمحدود في شيء يرجع إليه، فهو موجود لا يشوبه عدم، وحق لا يعرضه بطلان، وهو الحي لا يخالطه موت، والعليم لا يدب إليه جهل، والقادر لا يغلبه عجز، والمالك والملك من غير أن يملك منه شيء، والعزيز الذي لا ذل له، وهكذا.

وأما في الروايات فقد بين الإمام علي(عليه السلام) التوحيد في أدق معانيه في الخطبة الأولى من نهج البلاغة - وقد نفى(عليه السلام) عن ساحة القدس الإلهي الوحدة التي تفهم من معنى الكثرة العددية^(١٣٠).

والنكتة الملفتة للنظر في كلام صاحب تفسير الميزان هي: أنه بين بشكل واضح جداً أن عقيدة الوثنيين في الأوثان أنها كانت في عرض الله ونظير له تعالى وأنهم كانوا يعتقدون باستقلالها بل أكثر من هذا وذاك أنهم تركوا الله جانباً وتوجهوا للأوثان وأنهم كانوا يعتقدون بأن تدبير أمور العالم يعود إليها لا الى الله تعالى.

لاشك في صحة هذا القول لصاحب تفسير الميزان في بيان عقائد الوثنيين في الأوثان .

(١٢٦) الرعد: ١٦،

(١٢٧) يوسف: ٣٩ - ٤٠.

(١٢٨) سورة ص: ٦٥.

(١٢٩) الزمر: ٤.

(١٣٠) الميزان ج ٦ ص ٩٠ ذيل الآيات ٦٨ - ٨٨ سورة المائدة.

وأما القول الذي مرّ سابقاً واستدل عليه من خلال النقل التاريخي بأن الوثنيين كانوا في البداية يعتقدون بأن قدرة الأوثان في طول قدرة الله تعالى وذهبوا الى العرضية فيما بعد فإن هذا القول غير صحيح.

خلاصة القول

إذا لاحظنا العبارات السابقة نرى أن الوثنيين وهم يطلبون الشفاعة من الأوثان يعتقدون بأنها مستقلة في قدرتها فأى مشكلة كانت تحدث لهم إما أن تحلها الأوثان وإما أن تطلب الأوثان من الله حلّ المشكلة. سواء قلنا بأن الله خاضع للأوثان ولا بدّ أن يقبل شفاعتها أو قلنا كلاهما شريكان في التأثير وإن لم يكن تأثير الأوثان بحجم تأثير الله تعالى وإنما أقل منه ولكن القول بهذا المقدار القليل من التأثير هو اعتقاد بالاستقلال.

الاستدلال لا يتوقف على أن تكون قدرة الأوثان مثل القدرة الإلهية ونظير لها إنما مجرد القول بتأثير الأوثان بدون إذن الله تعالى وإن كان هذا التأثير قليلاً فهو قول بالاستقلال وعليه يُمكن الجمع بين الاستقلال والشفاعة نظير شخصين أحدهما طبيب والآخر مدير لمدرسة ما. فالأوّل هو الطبيب يعالج المشاكل الصحية لابن مدير المدرسة والثاني هو مدير المدرسة يحل المشاكل التربوية لابن الطبيب.

وكلاهما في مرتبة واحدة وأحدهما نظير للآخر وفي عرض واحد وهكذا هي الوسائط الانسانية فيما بين أبناء المجتمع فهي عرضية وليست طولية، ووساطة الأوثان بالنسبة الى الله تعالى هي كذلك.

رأي آية الله الزنجاني^(١٣١)

قال آية الله السيد عزّ الدين الزنجاني في مجال بيان الشرك وعقيدة المشركين في الأوثان (الشرك على قسمين: ١ - الشرك الاستقلالي حيث جعلوا فيه الأوثان في عرض الله. ٢ - الشرك الطولي وعقيدة المشركين من النوع الثاني بالتأكيد هناك فئة من الزمر المنحرفة كانت تعتقد بالنوع الأوّل).

نستطيع أن نشير الى المجوس منهم الذين يعتقدون بـ (يزدان) إله الخير و(اهريمن) إله الشر. ومنهم النصارى الذين يعتقدون (بالأقانيم الثلاثة) وهي (روح القدس) و(المسيح) و(الله).

(١٣١) السيد عز الدين الزنجاني من تلاميذ السيد العلامة محمد حسين الطباطبائي صاحب تفسير الميزان، متخصص في الفلسفة والعرفان وصاحب مؤلفات كثيرة منها: (معيان الشرك في القرآن) وهي مجموعة من المباحث أجاب بها عن سؤال لشخص منحرف العقيدة في مجال الاستشفاء والتوسل بالأئمة (عليهم السلام)، يسكن السيد الزنجاني حالياً في مدينة مشهد المقدسة.

أما المشركون الذين واجهوا الأنبياء وتحصّنوا ضدهم وكانوا يُسمّون بالمشركين فهم يعتقدون بأن قدرة الأوثان في طول قدرة الله تعالى لا في عرض قدرته. كان الوثنيون يعتقدون بأن صانع العالم شخص واحد ولم يُشركوا معه أحد في الخلق. إنما المشكلة في عقيدة هؤلاء أنهم جعلوا لله شريكاً في الألوهية وذلك من خلال جعل الأوثان واسطة بينهم وبين الله تعالى. وقالوا: إنّ لها موقع متميز وتقدير واحترام خاص عند الله.

الاعتقاد بالطولية (التبعية) على قسمين:

القسم الأول: له دليل قائم على البرهان.

القسم الثاني: ليس له دليل.

وبعبارة أخرى قسم مأذون له في الشفاعة عند الله وقسم غير مأذون له من قبل الله تعالى. ففي الحالة الأولى - وهي المأذونية - أجاز الله تعالى لعباده أن يذهبوا الى تلك الوسائط ويطلبوا حوائجهم منهم وأما في الحالة الثانية، عدم المأذونية فهي على خلاف الحالة الأولى حيث إن الله تعالى لم يعط مثل هذا الإمتياز والرخصة لأحد. ربما يكونوا قد ذهبوا الى هذا الاعتقاد عن طريق التقليد الأعمى لآبائهم وأسلافهم.

الإشكال الذي يواجه عقيدة المشركين هذه أنها كانت من القسم غير المأذون فيه فهم وإن كانوا يعتقدون إن قدرة الوثن على الشفاعة في طول قدرة الله تعالى وهو مجرد واسطة بين المخلوق وبين الله فهذا الاعتقاد لا يوجد عليه أي دليل أو برهان ولهذا ذم الله تبارك وتعالى هذا الاعتقاد وهذه الآية تعبر عن هذه المسألة: (هل عندكم من علم فتخرجوه لنا) (١٣٢).

(وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (١٣٣).

مفتاح الحديث في هذه الآيات أن الله تعالى يقول لهم فيها:

أنكم تأخذون بعقيدة ليس لكم عليها برهان ودليل ولم يأذن الله لكم بأن تتخذوا الأوثان وسائط في الشفاعة بينكم وبينه.

ولاشك في أن الوثنيين كانوا يعتقدون بطولية القدرة بين الأوثان وبين الله تعالى وأن المشركين في الجزيرة العربية كانوا يعتقدون بخالق واحد وهذا الآية تدل بوضوح على هذه المسألة.

(وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ فَاَنَّى يُؤْفَكُونَ* اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ* وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لِيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) (١٣٤).

فهذه الآيات دليل على أن المشركين كانوا يعتقدون بشفاعة الأوثان وأن قدرتها ليست مستقلة عن قدرة الله تعالى.

(١٣٢) الأنعام: ١٤٨.

(١٣٣) العنكبوت: ٦١ - ٦٣.

(١٣٤) العنكبوت: ٦١ - ٦٣.

والإدانة والذم الموجه من قبل الله تعالى للوثنيين ضد هذه العقيدة من باب أن الله تعالى لم ينزل بها من سلطان وأنها من مخترعاتهم التي ليس لهم عليها دليل وبرهان.

والفرق بين ما يعتقد به الوثنيون وبين ما يعتقد به الشيعة - من شفاعة النبي(صلى الله عليه وآله) والأئمة(عليهم السلام) - هو أن عقيدة الشيعة في شفاعة النبي(صلى الله عليه وآله) والأئمة مأذون فيها ويوجد عليها دليل في حين أن عقيدة الوثنيين غير مأذون بها ولا يوجد عليها دليل.

وبما أن عقيدة الشيعة قائمة على الدليل والبرهان فلا مانع منها ولا ضير فيها وهي مثل ما يفعل المسلمون مع الحجر الأسود من التبرك والتوسل به والدعاء والبكاء عنده والتسليم عليه ولا يوجد إشكال على ذلك كله لوجود الدليل والبرهان عليه.

تصرفات الوثنيين مع الأوثان التي كانوا يعبدونها أيضاً، أحياناً لم يكن من باب أنهم كانوا يعتقدون بها آلهة والأوثان نظيرة لله. وانما كانت من باب أنهم اعتقدوا بها وسائط كما توضّح ذلك الآية: (أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى) (١٣٥).

ومناسكهم من تقديم القرابين وغيرها كذلك للتقرب الى الأوثان من باب أنها كونها وسائط (١٣٦).

تحليل كلام آية الله الزنجاني ونقده بشكل عام

لا يخفى أن رأيه يختلف تماماً عن رأي استاذ العلامة الطباطبائي(قدس سره) بمائة وثمانين درجة.

ولتوضيح هذه المسألة لقد مرّ علينا رأي العلامة الطباطبائي في البحوث السابقة حيث أنه كان يعتقد بأن الوثنيين كانت عقيدتهم في البداية بعدم الاستقلال بالنسبة للأوثان وانما انتهوا بالتدريج الى القول باستقلال الأوثان عن الله تعالى وأنها نظير له وقدرتها في عرض قدرته تعالى وأخيراً انتهوا الى ما هو أعظم من ذلك حيث تركوا الله تعالى وتوجّهوا للأوثان تماماً واعتقدوا بقدرة الأوثان وهيمنتها على قدرة الله ورأوا أن الأوثان آلهة وعدّوا الله واحد بالعدد.

نعتقد أن السيد الزنجاني لم يستقص آيات الشرك بشكل كامل. واعتمد في رأيه على الآية: (ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى) وأمثالها.

ونحن فيما مضى قمنا ببحث مفصّل للآيات التي تدل على الاستقلال وجئنا بثمانية عشر دليل لاثبات أنهم كانوا يعتقدون باستقلال الأوثان ولمزيد إطلاع ندعو القراء الأعزاء مراجعة ذلك.

هذا الذي قيل: إن اعتقاد المشركين بالطولية ليس معناه الإذن لها بالشفاعة إن هذا القول لوحده لا يحلّ المشكلة وإنما نحتاج الى بحث واسع، مضى بعضه وسوف يأتي الباقي منه لاحقاً.

ما يقوله السيد الزنجاني من أن المشركين يعتقدون بالصانع الواحد ونحن أيضاً نعتقد بذلك - وقد بيّنا ذلك في العقائد المقبولة من المشركين - لكن هذا الاعتراف منهم لا يدل على القول بالطولية والتبعية وإنما ينسجم أيضاً مع القول بالعرضية والاستقلال وقد وضّحنا ذلك عند مناقشتنا لرأي السيد العلامة الطباطبائي بشكل مفصّل وواضح.

وما نعتقده نحن أن عقيدة الوثنيين خلال المسار التاريخي لها من البداية حتى النهاية كانت قائمة على استقلال الأوثان وأنّ قدرتها في عرض قدرة الله تعالى ولقد توضح ذلك جيداً من بحث الأدلة السابقة.

فلا ما يعتقد به السيد الزنجاني صحيح - كان يميل الى القول بالطولية مطلقاً - ولا ما اختاره صاحب تفسير الميزان - كان يميل الى القول بالطولية ابتداءً والانهاء الى العرضية لاحقاً - .

سوف نوافيكم بإذن الله لاحقاً بالجواب على استدلال السيد الزنجاني بالآية التي أطلقت على الأوثان شفعاء.

وسوف نثبت بالأدلة والشواهد أن الآية التي اعتمد عليها السيد الزنجاني دليل اضافي على أن عقيدة الوثنيين في الأوثان أنها مستقلة وقدرتها في عرض قدرة الله تعالى.

الردّ على كلام السيد الزنجاني بشكل مفصّل

الشفاعة المأذون فيها طولية - أيّ أنها تقع في طول إرادة الله تعالى لها - وأما الشفاعة غير المأذون فيها فهي استقلالية - الشفاعة الاستقلالية التي تقع بدون إذن الله تعالى - .
ففي آيات متعددة من القرآن الكريم لم تقبل الشفاعة ورفضت وفي آيات أخرى سُمح بها وقُبلت.

وبشكل مجمل لا بدّ أن نعرف أنّ الآيات التي لم تقبل الشفاعة ورفضتها ترتبط بشفاعة الشفيع الذي يُريد أن يكون مستقلاً في شفاعته. ويشفع بارادة مستقلة.
أما الشفاعة التي لا يمتلك فيها الشفيع إرادة مستقلة وإنما ارادته في طول إرادة الله تعالى وبإذنه فلا إشكال في مثل هكذا شفاعاة.
ولأجل أن نوضّح الموضوع أكثر نتعرض لبعض الآيات في الباب :

الآية الأولى:

(ولا يشفعون إلا لمن ارتضى)^(١٣٧) .

الآية الثانية:

(يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا لمن أذن له الرحمن ورضي له قولا)^(١٣٨) .

الآية الثالثة:

(ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له)^(١٣٩) .

الآية الرابعة:

(من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه)^(١٤٠) .

وهناك آيات أخرى تدل على نفس المعنى وردت في القرآن الكريم ومحصل المعنى فيها أنها تدل على أن هناك نوعين من الشفاعة إحداها مسموح بها والأخرى غير مسموح بها.

(١٣٧) الأنبياء: ٢٨.

(١٣٨) طه: ١٠٩.

(١٣٩) سبأ: ٢٣.

(١٤٠) البقرة: ٢٥٥.

وبعبارة أخرى هناك شفاعة لها وجود في الواقع الخارجي وهي عين الشفاعة التي وقعت بإذن الله تعالى وأخرى ليس لها وجود خارجي وهي التي لم يأذن بها الله.

رأينا أن المشركين يعتقدون بالشفاعة التي بإرادة مستقلة عن الأذن الإلهي وهذا النوع من الشفاعة من وجهة نظر الآيات القرآنية مرفوضة وغير مقبولة وهي غير موجودة أصلاً من وجهة النظر الإلهية.

ويستفاد من آيات القرآن أن عقيدة المشركين كانت مبنية على الشفاعة التي تتم بشكل مستقل وبدون إذن الله تعالى وبالمقابل أن الله تبارك وتعالى أذنان مثل هكذا شفاعة ولم يرض بها.

ويستفاد من الآيات التي تؤيد الشفاعة التي تقع بإذن الله تعالى ورضاه أنها تشكل جبهة مقابلة ضد عقيدة الشفاعة المستقلة عن الله تعالى.

فلو كان المشركون يعتقدون بالشفاعة التي تقع بإذن الله لما كان هناك سبب لردّ عقيدتهم كما جاء في بعض آيات القرآن لأن في هذه الحالة عقيدتهم في الشفاعة تنسجم مع عقيدة الموحدين .

معنى الشفاعة «بإذن الله»

معنى عبارة (بإذن الله) جاءت بتعابير متعددة في القرآن الكريم فمثلاً في بعض الآيات جاءت بمعنى الرضا كما في الآية (إلا لمن ارتضى) فترى الملاك في قبول الشفاعة رضا الله تعالى.

ورأي صاحب تفسير (الميزان) في الألفاظ المختلفة التي ترادفت على المعنى الواحد لكل منها معنى اضافي خاص باللفظ بمعنى آخر لم يكن هذا الاختلاف في اللفظ أمراً اعتباطياً وإن كان المعنى التي ترادفت عليه الألفاظ واحداً. أما رأي صاحب تفسير (مجمع البيان) أنها تؤدي الى مفاد واحد.

رأينا في الموضوع كذلك أنها جميعاً ذات دلالة واحدة ومعنى واحد، المهم أن يتوضح لنا معنى الشفاعة (بإذن الله).

فرضى الله تبارك وتعالى بشفاعة الشافعين وإمضائها وقبولها مشروطة بأن لا تكون في مراد الشفيع نوع من الاستقلال عن مراد الله تبارك وتعالى وإنما مراد الشفيع لابد أن يكون نفس مراد الله تعالى (رضا الله رضانا أهل البيت).

وفي الحقيقة أن رضى الله تعالى قد تجلّى في شفاعة الشفيع وبعبارة أخرى رضى الشفيع هي مجرى لرضى الله تعالى ورضى الله تعالى يتحقق من خلال شفاعة الشافعين ولا يوجد

بين رضى الله تعالى وشفاعة الشافعين نوع من الاثنينية، ولا يوجد محوران لاتخاذ القرار الذي يؤدي أحياناً الى التضاد.

بل أن رضا الشافعين يقع في طول رضى الله تعالى من ناحية ترتيبية ولا يوجد بينهما تضاد. هذا هو معنى الطولية .

رضى الله تعالى محبوب لدى الشافعين بشكل يقع اختيارهم على ما يختاره الله عز وجل ويرضى به.

ومن هذه الناحية فوض اليهم النظر في أعمال العباد. فواحدة من طرق الرحمة الإلهية الوصول الى عباد المكرّمون فهؤلاء الشفعاء الذين تمحضت ارادتهم بالإرادة الإلهية في الشفاعة فهم مقربون من الله كثيراً لعبوديتهم وإخلاصهم.

وكل من يُوصل بهم ويرتبط يحصل على المراتب العالية من القرب الإلهي. الأئمة(عليهم السلام) مظهر لأعلى مراتب الرحمة الإلهية. جاء في رواية عن الإمام الصادق(عليه السلام) يوضح فيها: (ولله الأسماء الحُسنى فادعوه بها)^(١٤١) قال: «نحن والله الأسماء الحسنى التي لا يقبل الله من العباد عملاً إلا بمعرفتنا»^(١٤٢). (وفي بيان هذا الحديث يقول آية الله العالم العارف السيد بهاء الديني(رحمه الله): الاسم ما يدل على المعنى.

فمثلاً زيد يشار به الى هذا الوجود الخارجي والأئمة(عليهم السلام) أيضاً يشار بهم الى صفات الله تعالى.

كل من يتمعن في الحلم والعلم والقدرة والصفات الأخرى للأئمة(عليهم السلام) ينتهي الى معاني معدن هذه الصفات وهو الله تعالى.

فالتمعن والنظر في علم علي بن أبي طالب نصل الى أن هذا العلم ليس علماً اكتسابياً بل له أصل وهو الله تعالى ومن القدرة والاعجاز الذي يتمتع به(عليه السلام) نصل الى أصله وهو الله تعالى وهكذا باقي الصفات الجمالية دليل مرشد الى الله تعالى^(١٤٣).

فكل من يرتبط بإمام معصوم يصل الى بحر الفضائل والكمال. هنا يمكن أن نُمثل لذلك بالمثل التالي: نفترض أن لدينا بحراً تتصل به بركة ويتصل بالبركة نهر فالجميع متصل بعضهم وله حكم واحد.

(١٤١) الأعراف: ١٨٠.

(١٤٢) تفسير نور الثقلين ج ٢ ص ١٠٣ ذيل الآية نقلاً عن أصول الكافي.

(١٤٣) محاضرات في الأخلاق للسيد بهاء الديني كان يحضره المؤلف.

فنحن نتصل ببركة النبي(صلى الله عليه وآله) والأئمة(عليهم السلام) والنبي(صلى الله عليه وآله) والأئمة(عليهم السلام) بالبحر المطلق الذي ليس له نهاية ونحن متصلون بالبركة نكون متصلين بالبحر المطلق ولا يوجد فاصل بين هؤلاء الثلاثة فالجميع واحد. فكل من يتصل بالإمام الحسين(عليه السلام) فهو متصل بالنبي(صلى الله عليه وآله) وكل من يتصل بالنبي(صلى الله عليه وآله) اتصل بالله تعالى لأن رضى هؤلاء واحد فالأنبياء(عليهم السلام) والأئمة(عليهم السلام) سلسلة من المراتب الوجودية.

أما عقيدة الوثنيين في الشفاعة لم تكن كذلك. انما كانوا يعتقدون أنّ الأوثان مستقلة وتمتع بطريقة مستقلة عن الله تعالى وهي التي تتقوم بتأدية الأمور بنفسها. ولو وجدت الحاجة في أمر ما الى الله تعالى. يطلبون من الله تعالى أن يقضي لهم هذه الحاجة ويحلّ لهم هذه المشكلة حتى ولو كان ذلك عن طريق الفرض والاجبار لله تعالى على حلّ المشكلة.

وهذا كما لو مثلنا له في الطبيب والمعلم في حياتنا الاجتماعية فكلاهما محتاجان للآخر وبما أن أحدهما يحتاج للآخر ويحلّ له ما يعترضه من مشاكل وإن كان ذلك بدون رغبة قلبية منه وفوق ارادته لأنه يحتاج له على كل حال في مسيرة حياته. فعليه يُنجر له ما يُريده منه.

إنّ محيط الجهل هو السائد المهيمن على الوثنيين. ولأجل أن نتعرف على هذا المحيط الذي يعيش الوثنيون في ظله ننقل لكم بعض الأمور المهمة فيما له علاقة بهذا الموضوع من تفسير الميزان لكي يتبين لنا مدى سطحية هذه العقائد والأفكار وكم هي بعيدة عن الحقيقة والواقع حيث نزلوا الله بمنزلة الأوثان في التعامل والأخذ والعطاء.

يقول صاحب تفسير الميزان: الملك والسلطان الدنيوي بأنواعه وأقسامه وبجميع شؤونه، وقواه المقننة الحاكمة ولمجرية مبتنية على حوائج الحيوية، وغايتها رفع الحاجة حسب ما يساعد عليه العوالم الزمانية والمكانية، فربما بدّل متاع من متاع أو نفع من نفع أو حكم من حكم من غير ميزان كلي يضبط الحكم ويجري ذلك في باب المجازاة أيضاً فإن الجرم والجنائية عندهم يستتبع العقاب، وربما بدل الحاكم العقاب لغرض يستدعي منه ذلك كان يلحّ المحكوم الذي يجرى عقابه على القاضي ويسترحمه أو يرتشيه فينحرف في قضائه فيجري أي يقضي فيه بخلاف الحق، أو يبعث المجرم شفيعاً يتوسط بينه وبين الحاكم أو مجري الحكم أو يعطي عدلاً وبدلاً إذا كانت حاجة الحاكم المرید للعقاب إليه أزيد وأكثر من الحاجة الى عقاب ذلك المجرم، أو يستنصر قومه فينصروه فيتخلص بذلك عن تبعة العقاب ونحو

ذلك. تلك سنة جارية وعادة دائمة بينهم، وكانت الملل القديمة من الوثنيين وغيرهم تعتقد أن الحياة الآخرة نوع حياة دنيوية يطرد فيها قانون الأسباب ويحكم فيها ناموس التأثير والتأثر المادي الطبيعي، فيقدمون الى آلهتهم أنواع القرابين والهدايا للصفح عن جرائمهم أو الإمداد في حوائجهم، أو يستشفعون بها، أو يفدون بشيء عن جريمة أو يستنصرون بنفس أو سلاح حتى انهم كانوا يدفنون مع الأموات أنواع الزخرف والزينة، ليكون معهم ما يتمتعون به في آخرتهم، ومن أنواع السلاح ما يدافعون به عن أنفسهم، وربما ألدوا معه من الجواري من يستأنس بها، ومن الأبطال من يستنصر به الميت، وقد أبطل القرآن جميع هذه الآراء الواهية، والأقاويل الكاذبة، فقد قال عزّ من قال: (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَى كَمَا خَلَقْنَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُنتُمْ مَا خَوَّلْنَكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ) (١٤٤) (١٤٥) .

لكي يتوضح المطب كان من المناسب أن تطرح آيات التي تدل على عقيدة الوثنيين في شفاعة الأوثان.

اعتقاد المشركين باستقلال الأوثان في الشفاعة

لقد جاء في عدة آيات من القرآن الحكيم ; أن شفاعة الأوثان في عقيدة المشركين تتم بشكل مستقل وفي عرض قدرة الله تعالى لا أنها تابعة للقدرة الإلهية وفي طولها. واليك بعض هذه الآيات:

الآية الأولى:

(أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَآ يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ * قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) (١٤٦) .

توضيح:

توجد عدة قرائن في هذه الآية تدل على أن الوثنيين كانوا يعتقدون أن الأوثان تؤثر بشكل مستقل في الشفاعة.

القرينة الأولى: ليس معنى الشفاعة في الآية الوساطة إنما معناها المساعدة والعون، كما أن المعنى الأصلي للكلمة هو هذا - لقد مرّ في البحوث السابقة ذلك في بحث معنى كلمة الشفاعة - فعليه أطلق في البداية كلمة الشفعاء على الأوثان ثم قال: (الله الشفاعة) .

(١٤٤) الانعام: ٩٤.

(١٤٥) تفسير الميزان ج ١ ص ١٥٥ ذيل الآية ٤٨ من سورة البقرة.

(١٤٦) الزمر: ٤٣ - ٤٤.

فلاشك أن معنى الشفاعة في الجملة الثانية ليس معناه الوساطة. ولا تُريد الآية أن تبين أن جميع الوسائط مختصة بالله فمن الواضح إن الله تعالى غير محتاج لأن يكون وسيطاً، وأنه لا يتوسط عند أحد. وإنما المراد من (الله الشفاعة) جميعاً أن القدرة على المساعدة والعون مرجعها إلى الله تعالى ولا حول ولا قوة لأحد من دون الله عز وجل. فهذه قرينة على أن المقصود من (الشفعاء) في جملة (أم اتخذوا من دون الله شفعاء) هو الإعانة والمساعدة.

ويمكن أن تطرح الآية بهذا الشكل: لقد اتخذتم الأوثان معيناً لكم وناصرأً والحال أن الحول والقوة جميعها لله تعالى، إن ما تطلبونه من العون والمساعدة من هذه الأوثان مرجعه إلى الله تعالى.

وبإطلاق كلمة الشفعاء على الأوثان تدل هذه القرينة بوضوح أن مراد الوثنيين من الشفاعة أن الأوثان تستطيع أن تُعينهم وتنصرهم وهذه القدرة تتمتع بها الأوثان بشكل مستقل. كان الوثنيون يقولون: أن الأوثان تشفع لنا أي تعيننا على حل مشاكلنا. فلو مرض أحد أبناءنا فالأوثان تشفيه من مرضه وهكذا أي مشكلة أخرى نواجهها تحلها الأوثان لنا وبما أن الله تعالى ميّز في الآية بين شفاعة الأوثان وشفاعته نعرف أن شفاعة الأوثان التي كان يعتقد بها الوثنيون شفاعة استقلالية لوجود المنافاة في هذه الحالة بين شفاعة الأوثان وشفاعة الله وهذا ما دعا إلى التمييز بين الشفاعتين.

أما لو كانت شفاعة الأوثان شفاعة غير مستقلة وأنها مستمدة من قدرة الله تعالى فلا يوجد بينها وبين شفاعة الله أي تنافي يدعو لتمييزها عنه بل كلاهما ينتهيان إلى مصدر واحد وشفاعة الأوثان سوف تكون نفس شفاعة الله تعالى.

ولا يحتاج عنده أن ينفي تعالى شفاعة الأوثان ويحصر الشفاعة به عز وجل فنحن الشيعة الذين نعتقد أن الأئمة (عليهم السلام) يُعينونا معناه: أن هذا العون في طول العون الإلهي ولا يوجد بينه وبين العون الإلهي أي تنافي.

وجود المنافاة إنما يكون فيما لو كانت هناك عرضية واستقلال بين المدّ والعون الإلهي والمدّ والعون الذي نطلب من الأئمة (عليهم السلام).

إنّ هذا يدل على أن هؤلاء اعتقدوا باستقلالية الأوثان في شفاعتها وأنها مستقلة في قدرتها وأنها في عرض الله تعالى .

والخلاصة نقول: لو كانت الشفاعة التي يعتقد بها هؤلاء الوثنيون طويلة لما كان هناك حاجة لنفي شفاعة الأوثان وحصر الشفاعة بالله وحده وذلك لأن كليهما في حالة الطولية

سوف تكون من سنخ واحد وأما في الحالة العرضية الاستقلالية فلا سنخية بينهما بل هما متباينان تماماً.

القرينة الثانية: لو كان الوثنيون يعتقدون بأن الأوثان تشفع في طول شفاعه الله لما كان هناك مبرر يدعو الى أن ينفي الله تعالى الملكية عن الأوثان ويقول: (لا يملكون شيئاً) أي أن الأوثان لا تملك شيئاً. لأن انتفاء الملكية عنها في هذا الفرض كان واضحاً من دون حاجة الى نفيها بقوله تعالى: (لا يملكون شيئاً) .

فجملة (لا يملكون شيئاً) تدل على أن الوثنيين كانوا يعتقدون بنوع من الملكية المستقلة للأوثان أمام الله تعالى ومن هنا كانت هناك حاجة لكي ينفي تعالى هذه الملكية عن الأوثان ويثبت ويحصر أن ملكية السموات والأرض به وحده تعالى ومن مجموع النفي والاثبات يتوضح أن عقيدة الوثنيين في شفاعة الأوثان أنها لها ملكية مستقلة أمام الله تعالى.

القرينة الثالثة: جاء في الآية ٤٤ من سورة الزمر التي هي استمرار للآية ٤٣:

(وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)

تبين هذه الآية أن مكانة الأوثان لدى الوثنيين أكثر أهمية من مكانة الله تعالى وهذا ما يدعوهم الى الاشتمزاز والنفرة عندما يُذكر الله تعالى وحده بينما يستبشرون ويفرحون عندما تُذكر أوثانهم هذا ما يدل على أن عقيدة هؤلاء في الأوثان أنها كانت عدلاً لله تعالى ونظيره ومستقلة عنه وأن شفاعتها مستقلة أيضاً فبناءً على اعتقادهم بطولية قدرة الأوثان على الشفاععة مع قدرة الله لا منافاة بين وجود الأوثان ووجود الله تعالى لكي يشتمزوا ويتنقروا من ذكر الله تعالى ويستبشروا ويفرحوا بذكر أوثانهم. لأن في حالة الاعتقاد بالطولية جميع ما تملكه الأوثان فهو من عند الله تعالى ولا توجد منافاة أبداً بين الاعتقاد طولياً وبين الوحدة الإلهية لكي تدعو الى استبشارهم وفرحهم وإنما عين الوحدة والتوحيد الإلهي وكذلك شفاعة الأوثان بناءً على القول بالطولية أنها عين الشفاععة الإلهية لا يوجد بينهما فارق وتميز لكي يدعو أحدهما للاشتمزاز والنفرة والآخر الى الاستبشار والفرح.

فلو كانت العقيدة طولية فهي كعقيدة الشيعة الإمامية في أئمتهم (عليهم السلام). فكما أن ذكر الأئمة (عليهم السلام) لا يؤدي الى النفرة والاشتمزاز من ذكر الله تعالى بل هو عين ذكر الله تعالى كذلك يكون ذكر الأوثان عن الوثنيين عين ذكر الله تعالى.

(إن ذكرنا من ذكر الله) .

إن النفرة والاشتمزاز إنما تأتي من التعدد في الرؤية والاثنيانية والتميز.

القرينة الرابعة: معنى عبارة (من دون الله) ظاهرة في الإثنيانية والتغاير وتميز الشفعاء عن الله تعالى وهي تنسجم مع الاعتقاد بالعرضية واستقلال الشفعاء بمعنى أنهم تصوّروا الشفعاء بشكل يميّزهم بحيث أنهم غير الله وشفاعتهم غير شفاعته الله. وأما بناء على القول بطولية قدرة الأوثان وامتدادها عن قدرة الله وكذلك شفاعتها في طول شفاعته الله ففي هذه الحالة لا توجد هناك إثنيانية وتعدد وإنما القدرة والشفاعة كلاهما لله وعين الآخر.

الآية الثانية:

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ)^(١٤٧).

توضيح:

جاء في تفسير مجمع البيان (زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ) معناه زعمتم أنهم شركاؤنا فيكم وشفعاؤكم، يريد وما نفعمكم عبادة الأوثان التي كنتم تقولون أنها فيكم شركاء وأنها تشفع لكم عند الله تعالى^(١٤٨).

أطلق في هذه الآية كلمة (الشركاء) على (الشفعاء). وقد مرّ علينا تبين لفظة الشريك حيث أنها تطلق في حالة كون الشريك نظيراً للشريك الآخر ومساوياً له وفي عرضه لا في طوله وامتداده وهذا الظهور للفظ يدل على الاستقلال. فهكذا يصبح مفاد الآية: أنكم تظنون أن شفعاؤكم شركاء لله ومن الواضح أن مثل هذه الشراكة تدعوا إلى الاستقلال في التأثير. النتيجة أن الوثنيين كانوا يعتقدون بشفاعة الأوثان التي هي شريكة لله تعالى أيضاً وبما أن لفظ الشريك ظاهر في العرضية والاستقلال فالشفيع كذلك سوف يكون مستقلاً في شفاعته وتأثيره.

الآية الثالثة:

(عَأْتِخْذُ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً إِن يُرَدَّنَ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُون) ^(١٤٩).

توضيح:

هذه الآية أيضاً لها دلالة على أن شفاعاة الأوثان في عقيدة الوثنيين كانت شفاعاة استقلالية.

توجد قرائن على هذه الدلالة:

القرينة الأولى: كلمة (من دون) بيّناها سابقاً.

القرينة الثانية: إطلاق لفظ الآلهة على الأوثان والآلهة ظاهرة في معنى الاستقلال وقد مرّ توضيح ذلك أيضاً في بحث استقلال الأوثان.

القرينة الثالثة: (لا تغن عني شفاعتهم شيئاً)

في هذه الجملة نفى النبي (صلى الله عليه وآله) إمكانية أن تشفع الأوثان وتعين - وهذا يدل على أن عقيدة الوثنيين كانت مبنية على أن الأوثان تستطيع أن تعين في حلّ المشاكل وهي تنسجم مع القول بالعرضية، والاستقلال لأنه بناءً على القول بالطولية والتبعيه لا مبرر لنفي شفاعاة الأوثان لأنها سوف تكون عين الشفاعاة الإلهية ولو كان حقاً أن الوثنيين يعتقدون بالشفاعة

(١٤٨) تفسير مجمع البيان ج ٤ ص ١١٦ ذيل الآية.

(١٤٩) يس: ٢٣.

الطولية والتأثير الناتج عن القدرة الإلهية لما كان هناك مبرر لأن يقول لهم النبي(صلى الله عليه وآله) : إن يُردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون. لأنه بناءً على القول بالطولية والتبعية يصبح الضرر الذي يأتي من الأصنام عين الضرر الذي يأتي من الله تعالى كما أن النفع الذي يأتي من الأوثان هو عين النفع الذي يأتي من الله تعالى. فمن مجموع هذه الآيات يستفاد أن شفاعاة الأوثان من وجهة نظر واعتقاد المشركين كانت شفاعاة استقلالية عرضية لا شفاعاة طولية تابعة للشفاعة الإلهية. فالنتيجة ان رأي السيد الزنجاني: أن شفاعاة الأوثان في عقيدة الوثنيين شفاعاة طولية غير صحيح.

نقد لقسم آخر من كلام آية الله الزنجاني

ادعى السيد أن المشركين لم يكونوا يعتقدون باستقلالية الأوثان بل كانوا يعتقدون بتبعيتها وامتداد قدرتها القدرة الإلهية. علماً أن الطولية والتبعية على نوعين: الأول: المأذون. والثاني: غير المأذون. فهؤلاء كانوا يعتقدون بالطولية والتبعية غير المأذون فيها. نحن نريد هنا أن نثبت عدم صحة هذا التقسيم وأن القول بالطولية والتبعية هو الأذن والسماح.

فلا يمكن أن تكون هناك طولية وتبعية ويكون عدم إذن وترخيص فهذا الكلام باطل وغير صحيح وذلك لأن الأذن عبارة عن الأذن التكويني لا الأذن التشريعي ومعنى الأذن التكويني أن يكون الشفيع والواسطه في سلسلة الأسباب والعلل.

فلو قلنا أن النبي(صلى الله عليه وآله) والأئمة(عليهم السلام) قد أذن لهم أن يشفوا المرضى ويقضوا الحوائج فمعناه أنهم في سلسلة العلل والأسباب لوصل العباد بالله تعالى.

فرطوبة الماء كانت بإذن الله تعالى وهو الذي أذن للماء أن يكون رطباً ولو لم يكن الماء رطباً نقول أن الله تعالى لم يأذن له أن يكون رطباً لكن حينما يكون رطباً نقول: أذن له أن يكون رطباً فلا معنى لأن يقال أن الرطوبة تقسم الى قسمين:

إحدهما: مأذونة والأخرى غير مأذونة لأنه اذا كان رطباً كان نفس معنى الأذن ولو لم يكن رطباً لم يأذن له.

فبمجرد الرطوبة كان الأذن وبعدم الرطوبة كان عدم الأذن فلا مجال لأن نقول هناك قسمين من الأذن.

الآثار الموجودة للوثن أو لأي واسطة هي كذلك. فلو كانت لها تأثير من قبل الله تعالى كان مآذوناً لها في ذلك ولو لم يكن لها تأثير تكويني فمعناه عدم الأذن.

الخلاصة أن البحث بحث وجودي وليس بحثاً جعلياً تشريعياً اعتبارياً.

فمعنى الأذن للإمام هو: إن الله قد أعطى للإمام مكانة ومرتبة وجودية بحيث جعل كل من يتصل بهم من عباده قد اتصل به تعالى وبعبارة أدق جعل كل مَنْ يتقرب اليهم قد تقرب الى الله شئنا أم أبينا فالمسألة هي كذلك أي أنها ثابتة في عالم التكوين.

فلو كان الوثن غير مآذون له فمعناه من ناحية تكوينية لم يأذن له الله أن يكون في دائرة الأسباب والعلل فالأوثان من الأساس ليس لها مكانة في سلسلة الطولية. لا أن نقول أنها في سلسلة العلل الطولية ولكن لم يأذن لها الله فهنا فرق بين أن يقال: ليس لها مكانة في سلسلة العلل الطولية وبين أن يقال أنها في سلسلة العلل الطولية ولكن لم يأذن لها فهذا الكلام غير صحيح.

كلامنا هو: لو أن الأوثان كانت في سلسلة العلل الطولية كان يلزم منه ثبوت الأذن ذاتاً وهذا نظير ثبوت الزوجية للعدد أربعة فحيث كان العدد أربعة كان زوجاً وكما لا يمكن التفكيك بين الأربعة والزوجية كذلك لا يمكن التفكيك بين الأذن والطولية في سلسلة العلل، لأن الأذن معناه صار في سلسلة العلل والأسباب ومؤثراً في عالم الوجود لأن الله أعطاه مثل هكذا وجود ومكانة في التأثير. ولو لم يجعله الله تعالى في سلسلة العلل والأسباب لما كان في الأصل في سلسلة العلل الطولية وهذا هو معنى عدم الاذن وعليه نصل الى النتيجة التالية التقسيم الى الاذن وعدم الاذن لم يكن صحيحاً.

الدفاع عن كلام الزنجاني وجوابه

يمكن أن يُدافع السيد عن رأيه بالقول: نحن عندما نقول أن قدرة الأوثان على الشفاعة في طول القدرة الإلهية نقصد بذلك - أن تكون في سلسلة الأسباب والعلل ويمكن لها بما تملكه من الله من مرتبة وجودية أن تنفع وتضر - وجهة نظر الوثنيين في الموضوع ونقصد بعدم الأذن أن الله تبارك وتعالى قد كذب أن يكون للأوثان مثل هكذا تأثير وأن تكون في سلسلة العلل والأسباب وقال عزوجل: إن هذه العقيدة ليس لها دليل ولا برهان أي أن الله تعالى لم يجعل الأوثان في سلسلة العلل والأسباب وعليه يكون لدينا القدرة الطولية التي لم يأذن بها تعالى.

والجواب:

إنّ مثل هكذا اعتقاد لا يتنافى مع التوحيد من ناحية ثبوتية. أي - لو اعتقد شخص ما بوجود كائن يكون واسطة بين الله وبين عباده ينفع ويضرّ بإرادة وإذن إلهي فلا يتنافى ذلك مع التوحيد لعدم وجود ما ينافي الوحدة الإلهية في البين. وبالتأكيد لو كان مثل هذا الأمر غير مطابق لعالم الواقع والثبوت فهو مجرد كذب خلاف الواقع. وهناك فرق بين أن يكون الأمر خلاف الواقع وبين أن يكون خلاف التوحيد. فلو اعتقد شخص ما بأن الماء ليس رطباً فإن هذه الأمر مخالف للواقع وليس مخالفاً للتوحيد.

فصاحب مثل هكذا عقيدة يجب أن يُؤبّخ لعدم قوله الحقيقة ولكن ليس كلامه خلاف التوحيد أبداً. لكي يؤخذ عليه إذن مثل هكذا اعتقاد لا يمكن أن يكون عقيدة للمشرّكين. لقد تُصوّر السيد الزنجاني بمجرد كون أمر ما مخالفاً للواقع ولم يأذن به الله تعالى فهو خلاف التوحيد. والحال ليس الأمر كذلك.

ففي موارد عديده من القرآن الكريم أَدان الله أهل الكتاب بقولهم الكذب على الله: فمرة يقولون إن الله حرّم شحوم الحيوانات أو بعض الحيوانات والحال أن الله تعالى لم يحرم ذلك والله تعالى أَدان أهل الكتاب على ذلك ولم يقل أنكم بعملكم هذا أشركتم وخرجتم من الوجدانية وإنما قال لهم إن هذا كذب محض.

٣

عقيدة الوثنيين
في المعاد

لقد بحثنا فيما سبق في مفردتين من عقائد الوثنيين الأولى - وهو من عقائدهم المقبولة - التي لا غبار عليها إن الله تعالى خالق الأرض والسماء - الثانية وهو من عقائدهم المذمومة القبيحة - إن الله تعالى له ذرية وأولاد وزوجة وصاحبة . الآن نجيب على السؤال التالي: هل إن الوثنيين كانوا يعتقدون بالمعاد أم لا؟ أي هل أنهم يعتقدون بعالم ما بعد الموت أم لا؟ للإجابة على السؤال نرى في البين جوابين للعلماء الأفاضل حول هذا الموضوع.

نظريتان في عقيدة الوثنيين في المعاد

الأولى: ما إختاره صاحب تفسير مجمع البيان والكشاف وهو: أن المشركين كانوا يعتقدون بالمعاد.

ففي ذيل الآية: (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) (١٥٠) .

قال الشيخ الطبرسي: إن هذه الآية في مقام نفي الشفاعة بمعنى لا يستطيع أن يشفع أحدٌ لأحد إلا بإذن الله وبما أن المشركين كانوا يعتقدون بأن للأوثان منزلة الشفاعة في يوم القيامة وأنها تشفع لهم فجاءت هذه الآية لتردّ عليهم عقيدتهم هذه .

ونفس هذا الموضوع جاء في ذيل الآية: (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) (١٥١) .

قال الطبرسي: وواحدة من المنازل التي كانوا يعتقدون بها للأوثان منزلة الشفاعة.

وكذلك يقول: صاحب تفسير الكشاف: أن المشركين كانوا يعتقدون بالمعاد .

الثانية: ما أختاره صاحب تفسير الميزان وهو: أن المشركين لم يكن لهم عقيدة في المعاد. وقد جاء شرح هذا الموضوع بشكل مفصل في تفسير ذيل الآية (الذي هم فيه مُخْتَلِفُونَ) (١٥٢) .

(١٥٠) تفسير مجمع البيان ج ٢ ص ٣٦٢ ذيل سورة البقرة: ٢٥٥ .

(١٥١) مجمع البيان ج ٥ ص ٩٨ ذيل آية ١٨ من سورة يونس.

(١٥٢) تفسير الميزان ج ٢٠ ص ١٥٩ ذيل الآية ٣ من سورة النبا.

وملخص رأيه: أنّ المشركين ينكرون المعاد ويرون البعث والمعاد من الأمور المستحيلة وتوجد آيات تدل على ذلك. وهم في إنكارهم للمعاد على أربعة مجاميع ; يتفقون في أصل إنكار المعاد :

الفئة الأولى: وهم الذين ينكرون المعاد بشدة ويرون المعاد من الأمور المستحيلة كما يُستفاد ذلك من الآية (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُبَيِّنُكُمْ إِذَا مَرَقْتُمْ كُلَّ مَرْقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ) (١٥٣) .

تدل هذه الآية على أن المشركين كانوا يرون المعاد أمراً مستحيلاً لا يمكن أن يتحقق. **الفئة الثانية:** هم الذين يستبعدون وجود يوم القيامة ولأجله كان ينكرون ذلك ولم يصل إنكارهم الى درجة إنكار الفئة الأولى ويستدل على هؤلاء بهذه الآية: (أَيَعِدْكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ * هِيَاتَ هِيَاتَ لِمَا تُوْعَدُونَ * إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ) (١٥٤) .

الآيات واضحة في دلالتها على هؤلاء الفئة وإعتقادهم بالمعاد. **الفئة الثالثة:** وهم الذين كانوا يُشكّون في يوم القيامة والبعث ولأجل ذلك كانوا ينكرون ويستدل على هؤلاء بالآية: (بَلْ أَدَارِكْ عَلِمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ) (١٥٥) . فالآية تبين إن شكهم في الحياة الآخورية سيتكامل يوم القيامة ليصبح علماً ويقيناً بتلك الحياة الآخورية التي كانوا يشكّون فيها.

الفئة الرابعة: وهم الذين كانوا يؤمنون في قلوبهم بالحياة الآخورية والمعاد ولكن كانوا من أهل العناد واللجاجة ولأجله كانوا يُنكرون المعاد ويستدل بهذه الآية: (بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ) (١٥٦) وكذلك كانوا يواجهوا مسائل التوحيد والنبوة وفروع الدين الأخرى باللجاجة والفساد.

فنحن نتفق مع صاحب تفسير الميزان بأن المشركين كانوا ينكرون يوم القيامة ولكن لا نتفق معه على تقسيمهم الى فئات ونرفض إستدلالاته التي جاء بها ومن يرغب في الاطلاع أكثر حول الموضوع فليراجع ذلك للمؤلف (١٥٧) .

(١٥٣) سورة سبأ: ٧.

(١٥٤) المؤمنون: ٣٥ - ٣٨.

(١٥٥) النمل: ٦٦.

(١٥٦) الملك: ٢١.

(١٥٧) خبر مهم تفسير سوره نبأ، للمؤلف باللغة الفارسية.

رد رأي صاحب تفسير مجمع البيان

يتوضح الردّ عليه من خلال ما جاء في تفسير الميزان فهو يقول: أن الشفاعة في (هؤلاء شفاعونا عند الله) المقصود منها الشفاعة الدنيوية لرفع البلائ وإزالة المصائب عنهم وجلب الخيرات لا المقصود منها الشفاعة الأخروية بمعنى أن الوثنيين كانوا يعتقدون بأن الأوثان تقع في سلسلة العمل والأسباب الطولية ولها تأثير في حل المشاكل الدنيوية ولو نزلت بهم مشكله فإن الأوثان لها القدرة على حل هذه المشكله وإزالتها. وبعبارة أدق أنها تستطيع أن تؤثر على الإرادة الإلهية كما تشاء وتحقق لعبادها من الوثنيين .

إذن الوساطة والشفاعة كانت في الأمور الدنيوية لا الأخروية والمراد من الشفاعة التي جاءت في سائر الآيات؛ الشفاعة الدنيوية ولا علاقة لها بالشفاعة الأخروية.

وحسب رأينا يمكن أن نجمع بين رأي صاحب تفسير مجمع البيان وصاحب تفسير الميزان بأن نقول: أنهم ينكرون المعاد ولو فرض أن يكون هناك معاداً فالأوثان سوف تشفع لهم. والمقصود من (هؤلاء شفاعونا عند الله) الشفاعة الأخروية.

ففيما فرض فالأوثان سوف تشفع لهم عند الله وما دام لديهم أوثان فلا هم لديهم ولا معاناة. ولا يرد على هذا الرأي شيء ويمكن أن يستدلّ له بهذه الآية الكريمة: (وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْبَىٰ) (١٥٨) .

المشركين وإنكار المعاد

نتناول هنا مع التوضيح الآيات الدالة على إنكار المشركين للمعاد علماً إن الآيات ليست بمستوى واحد في دلالتها فبعضها يدل صراحة على ذلك وبعضها يُشعر منه بذلك.

الآية الأولى

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ* إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدُوُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ) (١٥٩) .

وجه الاستدلال

صدر الآية وذيلها له علاقة بالمشرّكين ويستفاد من قوله تعالى: (إليه مرجعكم جميعاً) أن المخاطبين بها لم يكن لهم اعتقاد بالآخرة ويوم القيامة ويستفاد أيضاً من قوله تعالى: (أنّه يبدو الخلق...) إنّ الله تعالى قادر بسهولة أن يحيي الموتى والجملة في مقام التعليل لما سبقها من كلام.

الآية الثانية

(قُلْ إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أَشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَنَاب) (١٦٠) .

وجه الاستدلال

هذه الآية إن لم تدل بصراحة على أن المشركين لم يكونوا يعتقدون بالمعاد فهي تشير إلى ذلك من خلال ما أعلنه الرسول (صلى الله عليه وآله) إنه يدعو إلى: ١ - التوحيد ٢ - المعاد (أي الرجوع إلى الله بعد الموت) وهذا يدل أن المخاطبين بالرسالة الإسلامية آنذاك وهم المشركون لم يكونوا يعتقدون بالتوحيد والمعاد ومن هنا جاء تبليغ النبي (صلى الله عليه وآله) لهم بهاتين العقيدتين.

ومن نافلة القول أن نذكر هنا أن جميع الأنبياء كانوا في مواجهة مع المشركين وحسب قول الفخر الرازي (أقدم الأنبياء الذين خاضوا المواجهة مع المشركين نوح (عليه السلام)) (١٦١) وكان شعار جميع الأنبياء الدعوة للتوحيد وهذا يدل على أن جميع الأنبياء كانوا قد خاضوا مواجهة مع المشركين ولا نستطيع أن نقول : لا يوجد نبي لم يخض هذه المواجهة.

(١٦٠) الرعد: ٣٦.

(١٦١) التفسير الكبير للرازي ج ١ ص ١١ ذيل الآية (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) .

الآية الثالثة:

(بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ * قَالُوا أَعَدَّا مِثْنًا وَكُنَّا ثَرَابًا وَعِظَامًا أَعْنَا لِمَبْعُوثُونَ * لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَعَابَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * قُلْ لِمَنْ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (١٦٢) .

وجه الاستدلال

الآيات التي قبل هذه الآية وبعدها بدون شك لها علاقة بالمشركين وضمير (قالوا) يرجع على المشركين أيضاً. ويروونه خرافة وعقيدتهم كانت إنكار المعاد وهذه الآية تدل بصراحة أن المشركين كانوا ينكرون المعاد.

الآية الرابعة

(وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) (١٦٣) .
المخاطبون بهذه الآية المشركون أيضاً والآية تدل على ذلك إن لم يكن صراحة فتلوياً. والله تعالى ينصحهم ويدعوهم الى التوحيد والمعاد.

الآية الخامسة

(وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) (١٦٤) .
هذه الآية كذلك لو نظرنا الى ما قبلها وما بعدها نراها تدل على أن المشركين كانوا لا يعتقدون بالمعاد. والآية تحصر الحياة الحقيقية في الحياة الآخروية ويستفاد من قوله تعالى: (لو كانوا يعلمون) أن المشركين لم يكن لديهم معرفة وعقيدة بهذا الأمر أي المعاد.

الآية السادسة

(قَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ * أَعَدَّا مِثْنًا وَكُنَّا ثَرَابًا وَعِظَامًا أَعْنَا لِمَبْعُوثُونَ * أَوْ عَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ * قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ * فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ * وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ * هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ * احْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ * وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ) (١٦٥) .

(١٦٢) المؤمنون: ٨١ - ٨٤.

(١٦٣) القصص: ٨٨.

(١٦٤) العنكبوت: ٦٤.

(١٦٥) الصافات: ١٥ - ٢٤.

توضيح

(قالوا): الضمير يعود على المشركين.

وجه الاستدلال

من الواضح أن المخاطب في هذه الآيات المشركون وقد ردّ في الآيات (١ - ٥) عقائدهم المختلفة في إنكار التوحيد وذكرت أن ربّ المشركين ربُّ واحد وهو مدبّر السموات والأرضين وما بينهما ومدبّر المشارق أجمع وفي الآيات (١١ - ٢٤) يُبين وجهة نظر المشركين في نفي المعاد وإنكاره والردّ عليهم والآيات لها من الوضوح في دلالتها على أن المشركين كانوا ينكرون المعاد ما لا يحتاج معه الى مزيد توضيح وبيان لفقراتها. والآيات ٥٢ من نفس السورة والآية ٣ من سورة ق والآية ٤٦ من سورة الواقعة لها نفس الدلالة أعلاه.

الآية السابعة

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاستَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ* الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ) (١٦٦).

وجه الاستدلال

الآية تدل بصراحة على المعنى وتُبين لهم خصوصيتين وهي: عدم دفعهم للزكاة وإنكارهم ليوم القيامة.

الآية الثامنة

(أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِئَةٍ مِّنْ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَّا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ) (١٦٧).

توضيح

الضمير في (أنهم) يعود على المشركين والآيات السابقة على هذه الآية وهي من الآية ٤٧ فما فوق بالخصوص الآية ٥٢ (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ) لها علاقة بالكفار الذين ينكرون التوحيد والمعاد.

وكما ذكرنا أن الضمير في أنهم يعود على المشركين فعليه تكون دلالة الآية أنهم لم يكونوا يعتقدون بيوم القيامة وعدم الاعتقاد بيوم القيامة أعم من نفي يوم القيامة أو الترديد والتشكيك فيه فما نريده من هذا البحث هو أن نثبت أن المشركين لم يكونوا يعتقدون بالمعاد.

(١٦٦) فصلت: ٦ - ٧.

(١٦٧) فصلت: ٥٤.

دفع الشبهة

في بعض الآيات السابقة كان المشركون ينكرون يوم القيامة بشدة. ويرون المعاد مجرد خرافة أمّا في هذه الآية لم يكن كذلك بل نقلت الآية أنهم في حال من التردد والشك من يوم القيامة والمعاد ويمكن ان يكون لسبب وهو أن المشركين كانوا متفاوتين في بيان آرائهم بالنسبة ليوم القيامة والمعاد.

فأحياناً كانوا يظهرّون ذلك بشكل قاطع وأحياناً أخرى يترددون أو أن البعض منهم كانوا ينكرون ذلك بشدة وبعض يتردد في إنكاره.

الآية التاسعة

(شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ) (١٦٨).

الآن نريد أن نعرف ما المقصود (كبر على المشركين ما تدعوهم إليه) نريد أن نعترف ما الذي كانوا يدعوههم إليه النبي(صلى الله عليه وآله) ويرفضونه.

لاشك أن النبي(صلى الله عليه وآله) كان يدعوهم الى التوحيد والمعاد وكان يصعب على المشركين أن يأخذوا بهما والأدلة كثيرة على أن النبي كان يدعوهم الى المعاد. فواحدة من هذه الآيات صدر الآية التي تقول: إنَّ شريعتك هي شريعة الأنبياء السابقين ومن الواضح كما مرّ في الآيات العديدة السابقة أن شريعة الأنبياء السابقين كانت تدعوا الناس الى التوحيد وهكذا جاء في ذيل الآية أن النبي قد أمر أن يُنذر الناس بيوم القيامة.

(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ) .

فالمقصود من يوم الجمع هو يوم القيامة فلذا سوف تكون مهمة النبي(صلى الله عليه وآله) أن ينذر الناس بهذا اليوم ويخوفهم ويدعوهم الى الإيمان به.

الآية العاشرة

(وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ* قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) (١٦٩).

(١٦٨) الشورى: ١٣.

(١٦٩) يس: ٧٨ - ٧٩.

لقد اختلف المفسرون في تشخيص مَنْ هو قائل هذا القول وإن اتفقوا إنه من المشركين. وبالتأكيد لم يكن هذا القول لشخص واحد وإنما هو إشارة الى ثقافة المشركين.

الآية الحادية عشرة

(فِي جَنّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ* عَنِ الْمُجْرِمِينَ* مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ* قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ* وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمِسْكِينَ* وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ* وَكُنَّا نُكَذِّبُ بَيُّومَ الدِّينِ* حَتَّى آتَانَا الْيَقِينَ)^(١٧٠) .

وجه الاستدلال

المقصود من (المجرمين) إمّا أن يكون خصوص المشركين وإمّا أن يكون أعم من ذلك بحيث يشمل المشركين وغيرهم وفي أيّ حالة فهو يشمل المشركين وهم في مقام بيان السبب الذي جعلهم يدخلون جهنم. وقد صرّحت الآية بأحد هذه الأسباب وهو عدم الاعتقاد بيوم الدين أي يوم القيامة.

الآية الثانية عشرة

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نُدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُرِّقْتُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ)^(١٧١) .

وجه الاستدلال

المقصود من (الذين كفروا) إمّا أن يكون خصوص المشركين أو أعم من ذلك وفي كلا الحالتين سوف يشملهم والآية واضحة في عدم اعتقادهم بالآخرة ويوم القيامة وإنكارهم لذلك. ويمكن أن يُستنتس بنفس هذا المعنى بمراجعة الآيات ٥١ و ٥٢ من سورة يس والآية ٧ و ٤٤ من سورة الزمر والآية ٥٠ - ٦٠ من سورة الصافات.

(١٧٠) المدثر: ٤٠ - ٤٧.

(١٧١) سبأ: ٧.

٤

طقوس المشاركين

لقد مضى البحث في الفصل الأول في عقائد المشركين تحت عنوان العقائد المذمومة والعقائد الممدوحة وفي هذا الفصل سنتناول طقوس المشركين ومناسكهم التي كانوا يؤدونها بعنوان شعائر خاصة بهم.

قبل أن نرد البحث لابد أن نلفت النظر الى نقطة مهمة وهي: أن المشركين كانوا يؤدّون الشعائر برغبة وثنية ولو أردنا أن نعرّف شعائر الوثنيين نقول: أنها تلك الشعائر التي كانت تؤدّى بدافع التقرب الى الأوثان والتودد إليها.

وتوجد أدلة عديدة على هذا الموضوع وسيتوضح البعض منها خلال طيّات البحث فمناها:

(قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِثْلَ آبِرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لِأَشْرِكُ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ * قُلْ أَغْيَرُ اللَّهَ أَبْغَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَتَّخِذْ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهِهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) (١٧٢) .

نستفيد من جملة (ماكان من المشركين) إنّ إبراهيم(عليه السلام) لم يكن من المشركين فالآية تأمر النبي(صلى الله عليه وآله) أن يُعرّف بخطه الرسالي وهو الهدى الإبراهيمي الحنيفي التوحيدي وأن يعلن لهم أن سائر توجهاته التي هي أعم من مناسكه من صلاة وصوم وعبادات وهي الحياة والممات كلها لله تعالى وحده. وهذا يدل على أن الطرف المقابل للنبي الذي يمثله المشركون لم تكن طقوسهم لله انماكانت لأجل الأوثان والأصنام.

والظاهر أن العلامة الفارقة بين النبي(صلى الله عليه وآله) والمشركين تكمن في أن طقوس المشركين كانت تؤدي قربة للأوثان والأصنام بينما مناسك النبي وشعائره كانت تؤدي قربة لوجه الله تعالى وحده.

نماذج من طقوس المشركين

كان للمشركين طقوس وآداب ومراسم وعبادات وشعائر خاصة بهم...

وغالباً ما كانت هذه الطقوس تؤدى تقرباً لأوثانهم. نتعرض لبعض من هذه الطقوس والمناسك منها:

أ - ذبح الحيوان باسم الوثن.

كانوا يذبحون الحيوانات بذكر اسم الوثن عليها ويحتمل أن يكون من العلل والأسباب التي دعت الى ذكر اسم الله تعالى عند ذبح الحيوان في التشريع الإسلامي مواجهة هذه الشعيرة الخاطئة للوثنيين وإستئصالها.

فهم كانوا يذكرون اسم الوثن عند الذبابة ولكن أي وثن هو هل هو الوثن الكبير؟ أم وثن القبيلة؟ أم وثن البلد؟ فذلك مالم يتوضح.

ومن جملة آيات الداله على طقوس المشركين في هذا المجال:

١ - (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ الْيَوْمَ يَنْسَى الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَاتْخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ ۗ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۚ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (١٧٣) .

وجه الإستدلال

الآية في مقام عدّ المحرمات من المأكولات. وواحدة منها (ما أهل لغير الله بها) والإهلال في اللغة يعني (رفع الصوت) فالطفل الذي تضعه أمه عند الولاده يطلق على أول صوت يصدر منه إهلال ويحتمل أن يكون إطلاق كلمة الإهلال على الذبح لهذا السبب. حيث يطلق المشركون ذكر اسم الوثن عند الذبح.

٢ - (وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حِجْرَ لَا يُطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَمَ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ...) (١٧٤) .

وجه الإستدلال

نستفيد من الآية أن المشركين عندما كانوا يذبحون الأنعام لم يذكروا اسم الله عليها وانما كانوا يذكرون اسم الوثن عليها.

ب: قطع آذان الأنعام أو تشقيقها

والآية تدل على ذلك بصراحة (وَلَا ضِلَّيْلَهُمْ وَلَا مِئِينَهِمْ وَلَا مَرْتَهُمْ فَلْيَبَيِّنَنَّ عَادَانِ الْإِنْعَامِ) (١٧٥) .

(١٧٣) المائدة: ٣.

(١٧٤) الأنعام: ١٣٨.

(١٧٥) النساء: ١١٩.

في هذه الآية يهدد الشيطان بنى آدم بأن يحرفهم عن جادة الصواب منها تبتيك آذان الأنعام.

وقال في تفسير مجمع البيان هنا يوجد احتمالان:

أحدهما: قطع آذان الحيوانات وهو ما نُقل عن الإمام الصادق (عليه السلام)، وثانيهما: تشقيقها آذان الحيوانات.

ج: ذبح الحيوانات للتقرب للأوثان

نستطيع أن نستفيد ذلك من الآية: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِزْيِرِ وَمَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْفُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَّةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ) (١٧٦).

توضيح

(ما ذبح على النصب) جاء فيه معاني عديدة :

١ - الحيوانات التي تذبح بذكر اسم الوثن عليها.

٢ - الحيوانات التي تُذبح تقرباً للأوثان.

كلمة (على) هنا بمعنى اللام أي ما ذبح للنصب.

والنصب جمع النصاب ومعناه:

١ - الأوثان المصنوعة من الحجر.

٢ - الأحجار التي كانت يضعونها في أطراف الكعبة (١٧٧).

وجه الإستدلال

لو أخذنا بالمعنى الأول لعبارة (ما ذبح على النصب) فالآية دليل على ذكر اسم الأوثان عند الذبح. أمّا لو أخذ بالمعنى الثاني فالآية دليل على الذبح لأجل التقرب للأوثان. وأضاف في تفسير مجمع البيان أن المشركين كانوا يأخذون من دم الذبيحة يلطخون به الوثن لأجل التبرك.

د: الحيوانات التي يُحرّم الانتفاع بها

(١٧٦) المائدة: ٣.

(١٧٧) تفسير عليين: ١٠٧.

كان المشركون يعتقدون بحرمة الانتفاع من بعض الحيوانات في ظل ظروف خاصة للبعض أو للكل ويمكن أن نستدل لذلك بالآية (مَاجَعَلَّ اللَّهُ مِنَ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةً وَلَا وَصِيلَةً وَلَا حَامًّا وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُلُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) (١٧٨) .

توضيح

(بحيرة) هناك عدة أقوال في معناها:

- ١ - الناقة التي تلد خمس مرات ولو ولدت ذكراً في الخامسة يُشققون أذنيها ويمتنعون من ذبحها والركوب عليها ويطلقون سراحها في المراعي تأكل وتشرب.
 - ٢ - الناقة التي تلد خمسة مرات ولو ولدت في الخامسة ذكراً يذبحونها ويأكل النساء والرجال من لحمها ولو ولدت أنثى يشققون أذنيها ولا يركبونها ويُطلقون عليها (بحيره) وتحرم النساء من لبنها وسائر منافعها الأخرى وأما الرجال فلا يُحرمون من ذلك وعند موتها يأكل الرجال والنساء من لحمها.
- والبحيرة بمعنى التي شقّت وهي مأخوذة من البحر أي بمعنى المشقوق.
- (السائبة): ذكر لها عدة معاني:

- ١ - وهو الحيوان الذي يُحررونه لأجل الأوثان ويطلقون سراحه.
- (والسائبة) اسم فاعل من ساب الماء إذا جرى على وجه الأرض وهو بمعنى التحرر وإطلاق السراح.

(وصيلة) فهي من الوصل وقد جاء في معناها عدة أقوال:

- ١ - نقل عن الإمام الصادق (عليه السلام) كان في زمن الجاهلية إذا ولدت الناقة توأم سموها وصيله ويُحرمون ذبحها بعد ذلك ولا يأكلون من لحمها (١٧٩) .
 - ٢ - إذا ولدت النعجة أنثى كانت لصاحبها ولو ولدت ذكراً كانت قُرباناً للأوثان. ولو ولدت توأمًا من ذكر وأنثى كانوا يقولون وصلت الأخت بالأخ ويمتنعون من تقديم الذكر قرباناً للأوثان.
- (حام) إذا ولد من صلب الجمل عشرة أولاد: كانوا يمتنعون من ركوب ظهر ذلك الجمل ويطلقون سراحه يأكل ويشرب في المراعي ويقولون منع ركوب هذا الحيوان (١٨٠) .

(١٧٨) المائدة: ١٠٣.

(١٧٩) تفسير كنز الدقائق.

(١٨٠) تفسير مجمع البيان ذيل هذه الآية.

جميع هذه المحرمات الأربعة التي وردت عن المشركين لم يرضَ بها الله تعالى ورفضها وقال لم يُحرّم الله مثل هكذا أمور وما ذلك إلا افتراء على الله تعالى. ومن نافذة القول أن نذكر هنا أن الآية ١٣٨ و ١٣٩ من سورة الأنعام ناظرة بشكل غير مباشر الى الآية ١٠٣ من سورة المائدة. والمقصود من (أنعام حرمت ظهورها) وهي الحيوانات الأربعة التي ذكرت في سورة الأنعام والمقصود من (ما في بطن هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا) إشارة للبحيرة التي مرّ توضيحها.

هـ : تقسيم المحاصيل الزراعية والحيوانات بين الله والأوثان
(وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) (١٨١) .

توضيح

(جَعَلُوا لله): هناك محذوف حذف لوضوحه وهو (وجعلوا للأوثان منه نصيباً) وقد ذكرت أوجه هنا:

١ - كان المشركون يزرعون أرضاً يزعمون أنّ محصولاتها لله ويزرعون أخرى يزعمون أنّها لأوثانهم.

فلو كانت الأرض التي زعموا أنّها لأوثانهم لم تات بمحصول جيد وجاءت الأرض التي زعموا أنّها لله بمحصول جيد أخذوا من محصول الأرض الجيدة وجعلوه للأوثان وقالوا: ان الله غني غير محتاج وهكذا يفعلون مع الأنعام فكانوا يقسمونها بين الله والأوثان.

٢ - ولو اختلط شيء مما جعلوه حصّة للأوثان بشيء مما جعلوه حصّة الله يُخرجونه ويُرجعونه لحصّة الأوثان ولو حدث العكس أخرجوه وأطلقوا سراحه وقالوا إنّ الله غني وغير محتاج .

و: قتل الأولاد خوفاً من الفقر

يُستفاد من آيات القرآن الكريم إنّ واحدة من العادات والتقاليد التي كانت لدى المشركين قتل أولادهم خشية الإملاق والفقر. منها:

١ - (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَاقٌ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ) (١٨٢) .

(الإملاق): بمعنى الفقر والعوز، ومن نهي الباري عز وجل عن هذا العمل المُشين. نعلم أن مثل هذا العمل الفظيع كان يُمارس ويُتداول في أوساط هؤلاء المشركين.

٢ - (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَكُنْ تَرِزُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطَاً كَبِيرًا) (١٨٣).

وهذه الآية في غاية الوضوح في دلالتها على هذا العمل البعيد غاية البعد عن عواطف الإنسان وما جُبِل عليه حتى أن الآية القرآنية لم تطمئنهم - أي ترفع عنهم مسؤولية هذا العمل - وثوهم السبب الداعي لهذا العمل حسب بل تناولت هذا العمل بشكل مفرد وأثبت إنه خطأ كبير.

ح: اعتبار البنات عاراً ودفنهن أحياء

يتوضح من وجهة نظر التاريخ أن واحدة من العقائد غير الصحيحة والمنحرفة جداً للوثنيين الاحساس بالعار والدل من أن تلد لهم البنت ولكي يتخلصوا من هذا العار يؤدي بهم الحال أن يدفنوها وهي حية يسمعون أنين صرخاتها تحت التراب.

لقد تناول القرآن هذه الطامة الكبرى: (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ* يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) (١٨٤).

توضيح

(ظَلَّ وَجْهَهُ مَسْوُودًا): تَغَيَّرَ لَوْنُ وَجْهِهِ مِنَ الْخَجَلِ .

(كَظِيمٍ): مَمْتَلَى غَيْظًا وَحُزْنًا.

(يَمْسِكُهُ عَلَى هَوْنٍ): يَمِيلُ نَفْسَهُ وَيُدْبِرُ فِي أَمْرِ الْبِنْتِ الْمَوْلُودَةِ يَبْقِيهَا عَلَى ذَلِّ وَهَوَانٍ.

(أَمْ يَدْسُهُ فِي التَّرَابِ): أَيَّ يَدْفِنُهَا حَيَّةً^(١٨٥) .

وهذه الآية الكريمة نظير الآية السابقة: (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ)^(١٨٦) .

توضيح

(ضرب للرحمن مثلاً): أي جعل الله مثل ما لهم من أولاد والسبب في أن القرآن عبّر عن الولد بالمثل لا اعتقادهم إن الملائكة من أولاد الله والولد يكون شبيهاً لوالده^(١٨٧) .

ط: عبادة الأوثان وطلب الحوائج منها

من طقوس الوثنيين عبادة الأوثان والتواضع لها والانحناء لها ورفع اليد بالدعاء عندها طلباً للحوائج علماً إن طلب الحوائج من الأوثان معناه عبادتها وسوف يأتي توضيحه لاحقاً وقبل الخوض في هذا البحث لابد من أن يتوضح معنى العبادة هذا وإن تفصيل الموضوع سيأتي أيضاً في بحث مستقل لاحقاً.

وعلى الإجمال ففي رأينا أن العبادة هي (مطلق الخضوع والتذلل) ولم يلاحظ في هذا المعنى أي قيد اضافي آخر. بخلاف البعض الذي يرى أن العبادة هي (غاية التذلل والخضوع وأعلى درجات الخضوع والتذلل أمام الآخر) ولم يقولوا: إن كل تذلل هو عبادة. وسوف يتوضح الرأي الصائب لاحقاً اعتماداً على الآيات والروايات. وهناك آيات قرآنية يستدل بها على هذا الموضوع نذكر بعضها:

الآية الأولى:

(أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى)^(١٨٨) .

(١٨٥) مجمع البيان، ذيل الآية.

(١٨٦) الزخرف: ١٧.

(١٨٧) تفسير عليين ص ٤٩٠.

(١٨٨) الزمر: ٣.

وجه الاستدلال

قبل كل شيء مرّ البحث مفصلاً في هذه الآية. والغرض الذي سقنا الآية لأجله: أن المشركين يعترفون أنهم يعبدون الأوثان وإن كان بدافع القربة والتوسط بها الى الله تعالى لأجل أن تقضي حوائجهم.

الآية الثانية

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِن الظَّالِمِينَ)^(١٨٩) .

توضيح

من الواضح أن المقصود من (الناس) المشركين وذلك لأنه قال في الآية ١٠٤ (تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ)، وفي الآية ١٠٥ (وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) .
فالآية صريحة في دلالتها على أن المشركين كانوا يعبدون الأوثان ويرونها غير الله في ذلك.

وفي الآية ١٠٦ نهى بعبارة (لا تدع من دُونِ اللَّهِ) عن العبادة أي أن الدعاء عبادة وقد نهى عنها وكما مرّ في بداية البحث الدعاء وطلب الحوائج من الوثن له نفس معنى العبادة.

الآية الثالثة

(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)^(١٩٠) .
وهذه السورة تصرّح أكثر مما جاء في الآيات السابقة بأن الكفار والمشركين كانوا يعبدون الأوثان.

الآية الرابعة

(إِنْ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا * لَّعَنَهُ اللَّهُ...) ^(١٩١) .

(١٨٩) يونس: ١٠٤ - ١٠٦ .

(١٩٠) سورة الكافرون .

(١٩١) النساء: ١١٧ - ١١٨ .

توضيح

الضمير في (يدعون) يعود على المشركين الذين ذكروا في الآية ١٠٦، والمعنى ألم يعلموا أن الأوثان ليس لها أي تأثير.

(إن يدعون): ومعناها ما يدعون (إن) هنا نافية.

(إلا أنا): فيه أقوال:

أحدهما: إلا أوثاناً وكانوا يسمون الأوثان باسم الإناث: الآت والعزّ ومناة الثالثة الأخرى وإساف ونائلة .

ثانيها: إلا ملائكة لأنهم كانوا يزعمون أن الملائكة بنات الله وكانوا يعبدون الملائكة.

وثالثها: (إناث) بمعنى الانفعال ولأجله سميت المرأة بالأنثى.

فكأنما يريد أن يقول سبحانه وتعالى إنّ ما تعبدونه لا يستطيع أن يقوم بعمل ما لأنه ينفعل وليس هو الفاعل والحال لابدّ للمعبود الذي تطلبون منه قضاء الحوائج أن يكون فاعلاً قادراً لا منفعلاً متأثراً^(١٩٢).

(مريداً): نُقل فيه معنيان:

١ - مارداً شديداً في كفره وعصيانه.

٢ - لا يوجد فيه أيّ خير بقريضة (لعنه الله)^(١٩٣).

(لعنة الله): أبعد الله تعالى عن الخير^(١٩٤).

(إن يدعون): جاء في مجمع البيان (يدعون) المقصود منها العبادة في كلا الحالتين؛ أي لا

يعبدون إلا الأوثان ولا يعبدون إلا الشيطان. وفي الحقيقة تعود عبادة الأوثان لعبادة الشيطان لأنها تتمّ بأمره لعنة الله عليه.

لكن في تفسير الميزان قال (يدعون) معناها: العبادة أي لا يعبدون إلا الأوثان وأضاف صاحب تفسير الميزان بقوله: إنه عبّر عن (يعبدون) بـ (يدعون) ليبين إنّ دوافع الوثنيين لعبادة الأوثان هي: قضاء الحوائج وحلّ مشاكلهم. أما «يدعون» في جملة (إنّ يدعون إلا شيطناً مريداً) فمعناها الطاعة أي أنّ المشركين لا يطيعون إلا الشيطان المتمرد^(١٩٥).

(١٩٢) كنز الدقائق، ذيل الآية.

(١٩٣) الميزان، ذيل الآية.

(١٩٤) توضيح الكلمات من تفسير مجمع البيان ذيل الآية ١١٧ - ١١٨ من سورة النساء.

(١٩٥) الميزان، ذيل الآية.

والذي نعتقد به صحة رأي صاحب تفسير مجمع البيان وهو أنّ كليهما خضوع وعبادة ومعنى العبادة هو الطاعة ولا يوجد بينهما أي تميز واختلاف. وسوف نثبت ذلك لاحقاً. ونتعرض بالنقد أيضاً لكلام صاحب تفسير الميزان في هذا المجال ليتوضح المطلوب أكثر.



الثقافة الاجتماعية للوثنيين

بعد أن بحثنا في الدين الوثني وطوقسه نرى من الضروري أن نبحت أيضاً في الثقافة الاجتماعية، للوثنيين في بداية مبعث النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) .

لقد توضّح لنا فيما سبق بعض ألوان الثقافة المنحطة للوثنيين من قتل أولادهم خشية من الفقر والإحساس بالعار عندما تلد لهم بنت ودفن البنات وهنّ أحياء وتقديم القرابين للأوثان وتحريم الاستفادة من بعض الحيوانات والتقليد الأعمى للآباء. وسوف يأتي توضيح قسم آخر من ألوان هذه الثقافة المنحطة.

المهم إننا نريد أن نوضح مستوى الثقافة والمعرفة عند الوثنيين.

لقد كان الوثنيون كما نقله لنا التاريخ يعيشون في ظلام الجهل فلا قراءة ولا كتابة إلاّ البعض القليل منهم، يقول الطبري: (ولم يكن حينما بُعث (صلى الله عليه وآله) في مكة والمدينة من يحسن أن يكتب إلاّ القليل ولكنه (صلى الله عليه وآله) اهتم كثيراً بتعليم المسلمين الكتابة فشاعت الكتابة وزادت وكثر الكتاب بين المسلمين) (١٩٦) .

ولكن من وجهة نظر القرآن الكريم لا يمكننا أن نستند الى آية تُنفي أو تثبت ذلك.

أما آية (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) (١٩٧) .

جاء في توضيح معنى (أميين) بعض الآراء منها:

١ - أميين جمع أمي وهو من لا يستطيع القراءة والكتابة ووفق هذا الرأي إنّ الآية لها دلالة على أن الوثنيين لا يقرأون ولا يكتبون وسيتوضح بطلان هذا الاحتمال من خلال الروايات التي سوف نقلها.

٢ - الأميين الذين لم يكن عندهم كتاب سماوي رجّح صاحب تفسير الميزان الرأي الأول وطعن في الآراء الأخرى.

وأضاف أن النبي (صلى الله عليه وآله) بُعث في أمة لا تقرأ ولا تكتب وكان (صلى الله عليه وآله) هو واحد منهم وهذا ليس معناه إنّ لم يُبعث الى غيرهم وإنما بُعث للناس كافة (١٩٨) .

(١٩٦) مكاتب الرسول ج ١ ص ٣٩٤ عن تفسير الطبري ج ٢ ص ٤٦٥ وعن البداية والنهاية ج ٤ ص ٣٢٨.

(١٩٧) الجمعة: ٢.

(١٩٨) تفسير الميزان ج ١٩ ص ٢٦٤.

وذكر السيوطي في تفسير الجلالين رأياً مثل رأي صاحب تفسير الميزان^(١٩٩).
أما القرطبي في تفسيره فقد نقل رأياً عن ابن عباس: أن المقصود من (الأميين) العرب
كلهم سواء كان الذين يقرأون ويكتبون ومنهم أو الذين لم يقرأوا ولم يكتبوا ... ومعنى
(الأميين) أن العرب لم يكونوا أصحاب كتاب سماوي ولم يُبعث فيهم رسول^(٢٠٠) في قوله
تعالى: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ) وهذا المعنى منقول عن الصادق (عليه السلام) قال:
كانوا يكتبون ولكن لم يكن معهم كتاب من عند الله ولا بُعث إليهم رسول فنسبهم إلى
الأميين^(٢٠١).

وبما أن قول الإمام الصادق (عليه السلام) فصل الخطاب نستطيع أن نقول: أن الوثنيين كانوا
يتمتعون بنعمة القراءة والكتابة^(٢٠٢).

٦

(١٩٩) تفسير الجلالين ص ٧٤٨.

(٢٠٠) تفسير القرطبي ج ١٨ ص ٩١.

(٢٠١) بحار الأنوار ج ٦ ص ٢٤٣ عن تفسير القمي، البرهان ج ٥ ص ٣٢٢، تفسير نور الثقلين ج ٥ ص ٣٢٢.

(٢٠٢) ولأجل توضيح المطلب أكثر يراجع له تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٢١ وبحار الأنوار ج ١٦ ص ١٣٢ والميزان
ج ١٩ ص ٢٦٤.

الوثنية ديانة وهمية

ما هو الدليل الذي تعتمد عليه الديانة الوثنية؟

فهل كان للوثنيين دليل عقلي أو نقلي لدينهم؟

فما ينقله لنا القرآن الكريم في هذا المجال هو عدم وجود أي دليل لديهم وإنما يتبعون أهوائهم في ذلك أهواء في العقيدة وأهواء في الطقوس والمناسك وبكلمة واحدة نستطيع أن نقول: أن الديانة الوثنية استنتاجات من وحي الوهم والخيال ولا يوجد من ورائها كتاب سماوي أو أي دليل عقلي تعتمد عليه.

ولأجل توضيح المطلب أكثر نأتي ببعض الآيات من القرآن الكريم:

الآية الأولى

(وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنْكُمُ اشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا) (٢٠٣).

توضيح

كان المشركون يهددون الأنبياء ويخوفونهم أن تصيبهم الآلهة بسوء إذا غَضِبَتْ عليهم بسبب تعرض الأنبياء لها.

الآية الثانية

(وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ) (٢٠٤).

ونستفيد من هذه الآية بشكل جيد أن عقيدة الوثنيين لم تكن تعتمد على دليل علمي يقيني وإنما تنكئ على مجرد أوهام صنعتها أذهانهم.

الآية الثالثة:

(وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا) (٢٠٥).

لقد مرّ توضيح هذه الآية فهنا يذكر تبارك وتعالى ما اعتاد عليه المشركون من تقسيم الغلات الزراعية والمنتوجات الحيوانية بين الله تعالى وبين الأوثان ثم يبين عز وجل إن هذا

(٢٠٣) الأنعام: ٨١.

(٢٠٤) الأنعام: ١٠٠.

(٢٠٥) الأنعام: ١٣٥.

العمل الذي يعتقدون ويعملونه به ليس لهم عليه دليل مقنع وإنما هي اختراعات وأوهام وظنون الوثنيين.

الآية الرابعة

في الآية ١٣٧ من سورة الأنعام يذكر تعالى في البداية أحد التقاليد التي يزاولها المشركون وهي عبارة عن قتل الأولاد خشية الإملاق والفقر وفي نهاية الآية يقول (ذرهم وما يفترون) يُبين أن هذه العملية مجرد إفتراء على الله تعالى وليس لهم عليها أي دليل.

الآية الخامسة:

في الآية ١٣٨ من سورة الأنعام بعد أن يُبين قسماً من عقائدهم وطقوسهم - مرّ توضيحه سابقاً - يذكر تعالى (سيجزئهم بما كانوا يفترون...) سوف يأخذون جزاءهم عقوبة لما كانوا يفترونه على الله تعالى. وهذا يُبين إنّ هذه الأعمال والتصرفات هي مجرد افتراءات على الله تعالى.

الآية السادسة:

في الآية ١٣٩ من سورة الأنعام أيضاً يُبين هذه المفردة العقائدية للوثنيين وهي: ما ولد من هذه الحيوانات حياً فهو خالص للذكور دون النساء وما ولد ميتاً أكله الرجال والنساء. ثم يردف تبارك وتعالى هذه الممارسة الخرافية بقوله (سيجزئهم وصفهم إته حكيم عليم) أي سينالون جزاء هذه الأكاذيب التي يفترونها - وهذا ما يدل على أن هذه الأعمال ليس عليها دليل وإنما هي مجرد أوهام وخيالات هؤلاء المشركين.

الآية السابعة:

في الآية ١٤٠ من سورة الأنعام أيضاً يقول تبارك وتعالى في مورد قتل المشركين لأولادهم أنه عمل سفهاء - أي غير العقلاء - ويعيد كل البُعد عن العقل والفترة وتحريم نعم الله تعالى من دون دليل إفتراء وكذب على الله تعالى.

الآية الثامنة:

في الآية ١٤٢ و ١٤٤ من سورة الأنعام يختم تبارك وتعالى بهذه العبارة (أم كنتم شهداء) أي كنتم شهوداً على هذه التحريمات التي حرّمها الله تعالى وبعبارة أخرى لم تكن المسألة

كذلك وإِثْمًا مجرد إِفْتِرَاءٍ مِنْكُمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا) وقد لحق تعالى الآية بذلك.

وهذه الآيات تدل بوضوح كامل على أن هذه الأعمال والتصرفات التي كان يمارسها هؤلاء الوثنيون هي مجرد خرافات وأوهام لا دليل لهم عليها.

الآية التاسعة:

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ دَأَوْا بِآسِنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ* قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهْدَاكُمْ أَجْمَعِينَ* قُلْ هَلَمْ شَهِدْكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ) (٢٠٦).

قسم من هذه الآيات الشريفة تكذب الديانة الوهمية للوثنيين فتقول:

١ - (قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا) أي هل لكم دليل؟ أي أنكم لا تملكون دليلاً على هذه الخرافات والأوهام وقد أقمت هذه الخرافات على الأكاذيب حيث تفترون على الله أنه أمر بعبادة هذه الأوثان.

٢ - (إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ) أي إنكم تتكئون على الظن لا على الدليل العلمي.

٣ - (وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ): أي تكذبون.

٤ - (فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ): أي البينة الصحيحة من الله تعالى.

٥ - (قُلْ هَلَمْ شَهِدْكُمْ..) أي احضروا وهاتوا شهداءكم إذا كنتم صادقين فيما تدّعون. ومعناه المفهوم منه لا يوجد لديكم شهود ولو وجد من يشهد فهم كاذبون.

توضيح

هل أن المشركين كانوا جبريون - أي يعتقدون بأن الإنسان مجبور في أفعاله - ؟ فالبعض قال بذلك استناداً الى الآية ١٤٨ من سورة الأنعام ولكن هذا ليس بصحيح. لأن الآية ليست بصدد إثبات ذلك وإنما ظاهرها يدل على أن المشركين كانوا يدعون أنهم لديهم الدليل وبرهان من الله على هذه الممارسات الوثنية الخرافية والله قد كذبهم في ذلك.

الآية العاشرة:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ انْتُونِي بِكِتَابٍ مِّنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (٢٠٧) .

توضيح

(اثارة): فيها قولان:

أحدهما: بقية من علم يؤثر من كتب الأولين يعلمون أنهم شركاء لله.
ثانيهما: أي شيء منقول من علم يُثبت صحة ما تعبدون من هذه الأوثان (٢٠٨) .

الآية الحادية عشر:

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَّصِيرٍ) (٢٠٩) .

الآية الثانية عشر:

(وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ) (٢١٠) .

الآية الثالثة عشر:

(وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَّا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ* أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ* بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهُتَدُونَ* وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ* قُلْ أُولَئِكَ جُنُتُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ) (٢١١) .

(٢٠٧) الأحقاف: ٤.

(٢٠٨) مجمع البيان، ذيل الآية.

(٢٠٩) الحج: ٧١.

(٢١٠) المؤمنون: ١١٧.

(٢١١) الزخرف: ٢٠ - ٢٤.

يستفاد من هذه الآيات أنّ الوثنيين اتبعوا الوثنية اعتماداً على التقليد الأعمى والتعصب لأسلافهم ولا يوجد لديهم دليل منطقي يعتمدون عليه في ذلك.

الآية الرابعة عشر:

(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْأُثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (٢١٢).

الآية الخامسة عشر:

(قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رَجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ) (٢١٣).

الوثنية، حقيقة أم خيال

تبيّن لنا من خلال البحوث السابقة أن الوثنية لم تكن أكثر من مجرد سلسلة من الأوهام والخرافات ولا تستند على أي دليل عقلي أو نقلي وحتى وصف القرآن الكريم في كثير من آياته الشريفة هذه الأوهام والخرافات تارة بـ (المزاعم) وأخرى بـ (الخيال) وثالثة بـ (اتباع الظن) وغير ذلك. فنتناول بعض هذه الآيات على سبيل المثال:

الآية الأولى:

(وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَائُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ* ثُمَّ لَمْ يَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مِنْكُمْ مَشْرِكِينَ* انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) (٢١٤).

الآية الثانية:

(وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ) (٢١٥).

عبّر في الآية الأولى والثانية عن عقائد الوثنيين بـ (تزعمون) والزرع بمعنى أنها مجرد دعوى خالية من الدليل العلمي وهي ليست أكثر من مجرد وهم وخيال وظن لا غير.

(٢١٢) الأعراف: ٣٣.

(٢١٣) الأعراف: ٧١.

(٢١٤) الأنعام: ٢٢ - ٢٤.

(٢١٥) القصص: ٦٢.

الآية الثالثة:

(وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ) (٢١٦) .

الآية الرابعة:

(أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) (٢١٧) .

توجد آيات أخرى عديدة في القرآن الكريم تدل على نفس هذا المضمون (٢١٨) .
وتكفي هذه الآيات لإثبات وهمية وخرافية الديانة الوثنية.

وقصة تمرغل الوثنيين فيوحل الأوهام والخيالات كقصة ذلك الراعي الذي كان يملك ظرفاً من الخزف فيه زيت وجلس في يوم من الأيام مع نفسه وسرح في عالم الوهم والخيال محاوراً لها قائلاً: سوف أبيع هذا الزيت وأشتري بثمه بعض الخراف ثم تلد هذه الخراف فأكون صاحب ثروة ومال ثم أذهب لأخطب بنت الملك وأتزوجها وتخالفني في أوامري فأضربها بهذا الصحن الخزفي هكذا وإذا به قد رمى الصحن جانباً وكسره وأريق منه الزيت ونهض من ذلك العالم الوهمي الخيالي.

نعم فالذي يغرق في عالم الوهم والخيال يستطيع أن يبني ويرتب مع نفسه سلسلة من الأفكار الوهمية الخيالية.

فيظن أن الله تعالى كسائر المخلوقات له أزواج وأولاد وله أعضاء جسمانية (٢١٩)، وغير ذلك فالإنسان الذي يغرق في عالم الوهم والخيال يحتاج الى تنبيه يُخرجه من ذلك العالم حتى يدرك الوقائع على حقيقتها ومن هنا عندما كان يواجه المشركين أمواج البحر العاتية كانوا يرجعون الى عقولهم ويخرجون من وحل تلك المزاعم والخرافات ويصبحون موحدين حيث يرجعون الى فطرتهم الطاهرة.

توحيد الوثنيين في الظروف الصعبة

(٢١٦) يونس: ٣٦.

(٢١٧) يونس: ٦٦.

(٢١٨) الإسراء: ٥٦، الأنبياء: ٥٢ - ٧٠، القصص: ٦٢، ٧٤ - ٧٥، سبأ: ٢٢، الصافات: ١٤٦ - ١٥٧، الكهف: ٥١،

مريم: ٤٢، النجم: ٩ - ٣٠، الملك: ٢٠.

(٢١٩) سوف يأتي توضيح ذلك في الأسباب الداعية لعبادة الأوثان في شرح خطبة شرح نهج البلاغة - خطبة الأشباح.

لقد أشرنا فيما سبق الى أن الوثنيين يعيشون في سبات الأوهام والخرافات وبمجرد مواجهتهم لظرف خاص غير طبيعي يفيقوا من هذه النوم العميقة ويرجعوا الى عقولهم وفطرتهم وعندها يعرفوا لا حول ولا قوة إلا بالله من الظروف الصعبة التي تواجه هؤلاء الغارقين في سبات الوهم والخيال إنما هي كنقرة على أدمغتهم المغلقة لأجل أن يفيقوا ولكن للأسف بمجرد أن تزول تلك الظروف الصعبة وترجع الحياة الى طبيعتها يعودون الى حالتهم السابقة. هناك بعض الآيات تدل على هذا الأمر:

الآية الأولى:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ* بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ)(٢٢٠) .

نلاحظ أن الآية تتناول المسألة بكل وضوح فهي تقول: بمجرد أن يواجهوا تلك الظروف الصعبة تزول كل تلك الأواصر الوهمية والخيالية مع الأوثان وحسب فطرتهم يرجعون الى الله يطلبون منه النجاة.

الآية الثانية:

(قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظِلْمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيْنٍ أَنْجَاَنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ* قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ)(٢٢١) .

الآية الثالثة:

(هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَّئِنْ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ* فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ)(٢٢٢) .

الآية الرابعة:

(فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ)(٢٢٣) .

توضيح

مخلصين له الدين: أي يصبحوا موحدين ويتركوا عبادة الأوثان .

(٢٢٠) الأنعام: ٤٠ - ٤١ .

(٢٢١) الأنعام: ٦٣ - ٦٤ .

(٢٢٢) يونس: ٢٢ - ٢٣ .

(٢٢٣) العنكبوت: ٦٥ .

الآيات التي لها علاقة بهذا الموضوع كثيرة تُرجع مَنْ يرغب بالاستزادة منها الى سورة العنكبوت الآية (٥٣ - ٥٤) والإسراء ٦٧ والروم ٣٣ .

الخلاصة

نلاحظ أن الظروف الصعبة من شأنها أن تُنهض الوثنيين من سُبات الأوهام والخرافات وترجعهم الى فطرتهم التي خلقهم الله عليها وتجعلهم يستخدموا عقولهم ويتلاشى عالم الوهم والخيال الذي يعيشون في ظلاله أمام هذه الظروف الغير طبيعية وهذا يدل على أن الديانة الوثنية بما اعتادت عليه من آداب وطقوس وعبادات وشعائر تنهزم بأدنى محنة وتحدي تواجهها وسوف يأتي توضيح ذلك لاحقاً تحت عنوان الأسباب الداعية لعبادة الأوثان.

إيقاظ فطرة المشركين

يلاحظ في آيات القرآن الكريم إنّ الله تعالى استعمل مختلف الوسائل لإيقاظ الوثنيين من سبات الوهم والخيال وإرجاعهم الى وحي الفطرة والعقل. وهناك آيات عديدة تشرح كيف بدأ الله تعالى الخلق لأجل أن توقف كل صاحب فطرة على ذلك وأن تخرجه من عالم الوهم والخيال.

الآيات الداله على ذلك كثيرة نتناول منها:

الآية الأولى

(قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ءَاللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ* أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ءَعِلَّةٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ* أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ءَعِلَّةٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ* أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ءَعِلَّةٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ* أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ءَعِلَّةٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ* أَمَّنْ يَبْدُوُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ءَعِلَّةٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ* قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) (٢٢٤) .

توضيح

(أما يشركون): الظاهر من هذه العبارة أنه أرجع فصل الخطاب في المسألة الى فطرة ووجدان المشركين ليحكموا أيهما أفضل وأحسن هل هو الله بهذه الصفات التي بيننا لنفسه في القرآن أم الأوثان التي لا تملك حولاً ولا قوة؟
(حدائق): جمع (حديقة) أي البستان المحوَّط.
(ذات بهجة): ذات مناظر جميلة وجذابة تثير في الإنسان الحيوية والنشاط.
(بل هم قوم يعدلون): أي يجعلون الأوثان كفؤ الله ونظيرة له.
(أمن جعل الأرض قراراً): أي مستقرة لا تميل ولا تميد بأهلها.
وبعبارة أخرى هل كان يبقى هناك شيء في هذه للحياة لو كانت الأرض متزلزلة غير ثابتة؟ فهل يستطيع غير الله أن يجعلها ساكنة؟
(جعل بين البحرين حاجزاً): الفاصل الذي يميز بين المياه المالحة والمياه العذبة في البحار لأجل أن لا تمتزج بعضها ببعض. فهل يستطيع أن يفعل ذلك غير الله تعالى.
(أمن يجيب المضطر): أي من يجيب المكروب المجهود فيكشف ضرره وكربه هل غير الله قادر على ذلك.
أشرنا فيما مضى أن المشركين في المحن والبلايا والمصائب القاهرة والظروف غير الطبيعية كانوا يتجهون الى الله تعالى وحده وينسون أوثانهم.
(أمن يهديكم): أي من يرشدكم الى القصد في البر والبحر بما نصب لكم من الدلالات من الكواكب والنجوم إذا ظللتكم؟ هل غير الله قادر على ذلك.

الله الذي جعل الطيَّار والقبطان يستفيد من البوصلة في رحلاته لأجل أن لا يضلَّ ولا
يتيه في سيره نحو غايته.

فهل غير الله وقر كل هذه الإمكانيات الحياتية للبشر على الأرض؟

الآية الثانية:

(ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُم مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ
تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (٢٢٥).

توضيح:

(من أنفسكم): هل إنكم تُشركون عبيدكم وإيمانكم فيما رزقناكم من أموال وأملاك ونعم وأنتم وإياهم سواء في ذلك؟ أبداً.

وعن سعيد بن جبير كما جاء في تفسير مجمع البيان في ذيل تفسير هذه الآية: كانت تلبية قريش: لبيك اللهم لبيك، لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك فأُنزل الله تعالى الآية رداً عليهم وإنكاراً لقولهم.

فكما لا يمكن أن يكون عبيدكم وإيمانكم شركاء لكم فيما تملكون كذلك لا يمكن أن يكون عبيد الله تعالى شركاء فيما يملك.

والسبب الداعي لنزول هذه الآية يتوضح لنا مدى انحطاط التفكير لدى الوثنيين ومدى سطحيته.

فمن جهة كانوا يعتقدون بوجود الشريك لله تعالى ومن جهة أخرى كانوا يعتقدون بأن شريكه قد خلقه الله تعالى وجميع ما لدى هذا الشريك المخلوق فهو من عند الله. فكيف يمكن الجمع بين هذين اللونين من العقيدة؟ لأن الاعتقاد الأول يقتضي أن يكون الشريك مستقلاً أمام الله تعالى وكفو له لا تابعاً يستمد منه القدرة - لقد مرّ علينا هذا البحث - وأما الاعتقاد الثاني - هو أن يكون الشريك قد خلقه الله تعالى - يقتضي أن هذا ليس بشريك في الحقيقة.

الآية الثالثة:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) (٢٢٦).

تبدأ هذه الآية بتوضيح الأفعال الإلهية من الخلق والرزق والموت والإحياء بعد الموت وأخيراً خاطب ضمائرهم ووجدانهم هل تستطيع أوثانكم أن تأتي بمثل هذه الأعمال؟

الآية الرابعة:

(خَلَقَ السَّمَوَاتِ بَغِيرِ عَمَدٍ تَرْوُنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَلٍ مُبِينٍ) (٢٢٧).

مرّ علينا توضيح وشرح هذه الألفاظ فيما مضى، بقي أن نوضح هنا نكتة لطيفة في عبارة هذا خلق الله.

(هذا خلق الله): أي هذا الذي ذكرت من السموات على عظمتها وكبر حجمها والأرض وما فيها خلق الله الذي أوجده وأحدثه فأروني ماذا خلقت أوثانكم؟
أراد تعالى بهذه الجمل أن ينبّه هؤلاء الوثنيين من غفلتهم وأن يُوقظهم لكي يلتفتوا لما حولهم ويتفكروا به جيداً.

استعراض لضعف ووهن الأوثان

الله تعالى يبيّن في مجموعة من الآيات ضعف ووهن وعجز الأوثان عن تأديه أدنى عمل لأجل أن يوقظ الفطرة ويخرجها من عالم الوهم والخيال الى عالم الحقيقة والواقع.
نذكر بعض هذه الآيات الشريفة مع التوضيح:

الآية الأولى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبَ مَثَلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ) (٢٢٨).

توضيح

(ضرب مثل): ورد فيها معنيان:

أحدهما أن الله قال: ضرب لي مثل، أي: شبه من الأوثان ثم قال: فاستمعوا لهذا المثل الذي جعلوه مثلي.

والثاني: أثبت حديثاً يُتَعَجَّبُ منه فاستمعوا له لتقفوا على جهل الكفار (٢٢٩).

وضّحت هذه الآية بشكل تمثيلي عملي ضعف ووهن الأوثان، فكأنما يُريد أن يقول: إنّ الكائن الذي يعجز أمام الدُّبابة كيف يمكنه أن يكون شريكاً لله القادر المطلق؟ لا يوجد أي تناسب في القدرة بين هذين الشريكين وبعبارة أدق لا يمكن أن يُقاس أحدهما بالآخر. حقاً لقد كانت الآية التالية: (مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَعَزِيزٌ) (٢٣٠). أظهر عبارة تدل على إيقاظ هؤلاء الوثنيين من غفلتهم.

والظاهر أن هذه الآية فيها لون من العتاب. وهو كيف أنهم لم يعرفوا الله تعالى وهو بهذه العظمة؟ وجعلوا له شريكاً ونظيراً من أضعف مخلوقاته وله تعالى القدرة القاهرة.

(٢٢٨) الحج: ٧٣.

(٢٢٩) مجمع البيان، ذيل الآية.

(٢٣٠) الحج: ٧٤.

الآية الثانية:

(مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ* إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ* وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ)(٢٣١).

(أولياء): المقصود منه الأصنام كما جاء في تفسير عبدالله شبر وقال:

(أصناماً يلجأون إليها أي في وهن ما اعتمدوه في دينهم كمثال العنكبوت اتخذت بيتاً تأوي إليه من نسجها وهو في غاية الوهن يضمحل بأدنى سبب ولا يقبها حراً ولا برداً كذلك الأصنام لا تنفع عبادتها فدينهم أو وهن من بيوت العنكبوت)(٢٣٢).

النكته الملفتة للنظر في هذه الآية أنها تريد أن تبين: أن الديانة الوثنية ضعيفة جداً ولا تتمتع بمتانة ولا تعتمد على أي دليل عقلي أو نقلي. كمثال بيت العنكبوت تتلاشى بأدنى أنملة أو بأدنى مواجه لها.

فمثلاً عندما كان يُسأل الوثنيون بأي دليل تعبدون هذه الأوثان؟

يجيبون: كان كُبراًؤنا وأشرافنا وعظماؤنا يفعلون ذلك ونحن على آثارهم سائرون.

جاء في تفسير الكشاف: (أن أو هن البيوت إذا استقريتها بيتاً بيتاً بيت العنكبوت. كذلك أضعف الأديان إذا استقريتها ديناً ديناً عبادة الأوثان)(٢٣٣).

(لو كانوا يعلمون): هذا الجزء من الآية يحمل رسالة مهمة وهي: لو التفت فطرة هؤلاء لعرفوا أن الديانة الوثنية من أضعف ما يمكن أن يكون لكن الظاهر إن ذلك كان من غير الممكن بدليل (لو) التي هي حرف امتناع لوجود.

(وتلك الأمثال نضربها): يُبين الله تعالى في هذا القسم من الآية الهدف من الأمثال التي يأتي بها «الألا» وهو إيقاظ القوة العاقلة للبشر.

(العالمون): المتدبرون والعلماء(٢٣٤).

وبما أن الوثنيين ليسوا بأهل علم ولا فهم ولا تفكير. أي لو كانوا من أهل التدبر لو عوا وعقلوا لكن بما أنهم ليسوا كذلك لا يعوا الغرض الذي يُريده القائل من هذه الأمثلة. ما أعظم هذا الكلام المُبين الذي يستنهض الفطرة المضمرة للمشركون وما أرقاه في بيان ضعف وعجز الأوثان.

(٢٣١) العنكبوت: ٤١ - ٤٣.

(٢٣٢) تفسير عبدالله شبر، ذيل الآية أعلاه.

(٢٣٣) الكشاف، ذيل الآية الشريفة.

(٢٣٤) تفسير عبدالله شبر، ذيل الآية.

الآية الثالثة:

(قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ) (٢٣٥) .

توضيح

(زعمتم): جاء في تفسير الكشاف تقديره (زعمتموهم آلهة) .
(هم): مفعول به أول و(آلهة) مفعول به ثاني محذوف.
أي نادوا من تتصورون وتعتقدون بأنهم آلهة.
(شرك): نصيب وحصة.
(وماله منهم من ظهير): لم يكن له تعالى من هؤلاء الأوثان معين ومساعد له.

الآية الرابعة

(لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَسِطَ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ) (٢٣٦) .

توضيح

(له دعوة الحق): (دعوة): عبادة أي العبادة الحقيقية تناسب الله تعالى فقط لأنه تعالى هو الإله الحقيقي ولا يوجد غيره يستحق ذلك حتى يقفون أمامه يدعونه ويتضرعون إليه لأن هذه الأوثان مجرد أوهام وخيالات باطلة ليس لها أي تأثير في عالم الوجود.
لقد قارنت الآية بين عبادة الله وعبادة الأوثان فأطلقت على الأولى بالحق وعلى الثانية بالباطل.

(كباسط كفيه): بمعنى يضرب به المثل وفيها احتمالان:

- ١ - الشخص الذي يبسط كفه للماء من بعيد .
 - ٢ - الشخص الذي يبسط كفه من بعيد للماء ليتناوله. وهذا ما لا يمكن أن يكون بل لابد أن يغرف من الماء بكفيه ليشرب.
- هناك آيات عديدة أخرى بهذا الصدد مثل الآية ١٩٧ من سورة الأعراف والآية ٥٢ - ٧٠ من سورة الأنبياء.

٧

أسباب عبادة الأوثان

مرّ علينا في البحوث السابقة أن الوثنيين لم يكن لديهم أي دليل عقلي أو نقلي تتكّىء عليه عقائدهم وعباداتهم الوثنية وعليه فمن الضروري أن نشخص الأسباب التي دعت هؤلاء الى هذه الديانة والطقوس. ومن خلال البحث في آيات القرآن الكريم وتعرّفنا على بعض العلل والأسباب التي أدت الى ذلك.

أولاً: الجهل بالله وعدم معرفته

السبب الأول هو عدم معرفة الله تعالى وتصور مساواته مع المخلوقات وفي عدد من الآيات القرآنية يستفاد أن هؤلاء المشركين كانوا يرون الله تعالى كما يرون سائر المخلوقات؛ حيث جعلوا له قرينة وأولاداً. فاليهود جعلوا عُزيراً ابن الله والنصارى جعلوا المسيح ابن الله والمشركون أيضاً جعلوا الملائكة بنات الله لا بل جعلوا له صاحبة وزوجة وكما جاء ذلك في الآية: (لم يتخذ صاحبة ولا ولداً) (٢٣٧) وفي سورة التوحيد أيضاً. لقد بيّن الإمام علي (عليه السلام) في كتاب نهج البلاغة بكل وضوح جهل المشركين وعدم معرفتهم بالله.

«... كذب العادلون بك (٢٣٨)، إذ شبهوك بأصنامهم، ونحلوكم حلية المخلوقين بأوهامهم (٢٣٩)، وجزؤوك تجزئة المجسمات بخواطرهم وقدرؤك على الخلقة المختلفة القوى (٢٤٠) بقرائع عقولهم، وأشهد أن من ساواك بشيء من خلقك فقد عدل بك والعدل بك كافر بما تنزلت به محكمات آياتك ونطقت عنه شواهد حُجج بيناتك،

(٢٣٧) الجن: ٣.

(٢٣٨) العادلون بك الذين عدلوا بك غيرك أي سووه بك وشبهوك به.

(٢٣٩) نحلوكم أعطوك، وحلية المخلوقين صفاتهم الخاصة بهم من الجسمانية وما يتبعها أي وصفوك بصفات المخلوقين، وذلك إنما يكون من الوهم الذي لا يصل الى غير الأجسام ولو احقها دون العقل الذي يحكم فيما وراء ذلك.

(٢٤٠) قدرؤك قاسوك.

وأنت أنت الله الذي لم تتناه في العقول فتكون في مهبط فكرها مكتفياً^(٢٤١) ولا في رويات خواطرها فتكون محدوداً مصرفاً^(٢٤٢)»^(٢٤٣).

ففي هذه الخطبة يُبين الإمام عليّ (عليه السلام) أن الوثنيين بسبب الجهل وعدم المعرفة بالله جعلوه عزّ وجلّ كسائر مخلوقاته وبعقولهم الناقصة وأوهامهم جعلوا له أعضاء كأعضاء المخلوقات.

وقال (عليه السلام) في القسم الأوّل من نفس هذه الخطبة المعروفة بخطبة الأشباح:

«فانظر أيّها السائل، فما ذلك القرآن عليه من صفته فأنتم به^(٢٤٤)، واستضيء بنور هدايته، وما كلفك الشيطان علمه مما ليس في الكتاب عليك فرضه، ولا في سنة النبي (صلى الله عليه وآله) وأئمة الهدى أثره، فكل علمه الى الله سبحانه، فإن ذلك منتهى حق الله عليك، واعلم أن الراسخين في العلم هم الذين أغناهم عن اقتحام السُّدود المضروبة دون الغيوب، الإقرار بجملة ما جهلوه تفسيره من الغيب المحجوب^(٢٤٥)، فمدح الله - تعالى - اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً، وسمّى تركهم التعمّق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخاً. فاقصر على ذلك، ولا تُقدّر عظمة الله سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين. هو القادر الذي إذا ارتمت الأوهام لتدرك منقطع قدرته^(٢٤٦)، وحول الفكر المبرراً منخطرات الوسوس أن يقع عليه في عميقات غيوب ملكوته^(٢٤٧) وتولّدت القلوب اليه^(٢٤٨)، لتجري في كنيّة صفاته^(٢٤٩)، وغمضت مداخل العقول في حيث لا تبلغه الصفات لتناول علم ذاته^(٢٥٠). ردعها وهي تجوب مهاوي سدف الغيوب، متخلصة اليه سبحانه، فرجعت إذا جبهت^(٢٥١) معترفة بأنه لا ينال بجور الاغتساف كنه معرفته^(٢٥٢).

يستفاد من قول الإمام (عليه السلام) نكتتان:

- (٢٤١) أي لم تكن متناهيّاً محدود الأطراف حتى تحيط بك العقول فتكيفك بكيفية مخصوصة.
- (٢٤٢) مصرفاً أي تصرفك القول بأفهامها في حدودك.
- (٢٤٣) نهج البلاغة، خطبة الأشباح.
- (٢٤٤) أنتم به أي اتبعه فصفه كما وصفه اقتداء به.
- (٢٤٥) السدد جمع سدة باب الدار، والإقرار فاعل أغناهم.
- (٢٤٦) ارتمت الأوهام ذهبت أمام الأفكار كالطليعة لها، ومنقطع الشيء ما إليه ينتهي.
- (٢٤٧) المبرراً إلخ أما الملابس لهذه الخطرات فمعلوم أنه لا يصل الى شيء لوقوفه عند وسوسه.
- (٢٤٨) تولّدت القلوب إليه اشتد عشقها وميلها لمعرفة كنهه.
- (٢٤٩) لتجري إلخ لتجول ببصائرها في تحقيق كيف قامت صفاته بذاته أو كيف اتصف سبحانه بها.
- (٢٥٠) وغمضت إلخ أي خفيت طرق الفكر ودقت وبلغت في الخفاء والدقة الى حد لا يبلغه الوصف.
- (٢٥١) ردعها إلخ جواب للشرط في قوله إذا ارتمت إلخ. وردعها كفها وردعها، والمهاوي المهالك، والسدف بضم ففتح جمع سدفه وهي القطعة من الليل المظلم، وجبهت من جبهة إذا ضرب جبهته والمراد ردت بالخيبة.
- (٢٥٢) الجور العدول عن الطريق، والاعتساف سلوك على غير جادة وسلوك العقول في أي طريق طلباً لاكتناه ذاته وللوقوف على ما لم تكلف الوقوف عليه من كنيّة صفاته يعد جوراً وعدولاً عن الجادة، فإن العقول الحادثة ليس في طبيعتها ما يؤهلها للإحاطة بالحقائق الأزلية، اللهم إلا ما دلت عليه الآثار وذلك هو الوصف الذي جاء في الكتاب والسنة، وكنه معرفته نائب فاعل ينال.

١ - الشخص الذي يتعرّف على الله تعالى من خلال النبي (صلى الله عليه وآله) والأئمة (عليهم السلام) لا يمكن أن يكون معتقداً بشريك لله تعالى.

والمهم إنّ الشخص الذي يعتقد بأن خلق السموات والأرض وما بينهما هو من عند الله وحتى الأوثان فكيف يمكن لمثل هذا الشخص أن يعتقد بوجود الشريك النظير لله تعالى ومن مخلوقاته بالذات. لا يمكن الجمع بين هذين اللونين من الاعتقاد أبداً لتناقضهما.

٢ - من خلال الالتفات الى النكة الأولى والالتفات الى قول المشركين إنّ السموات والأرض وما بينهما لله تعالى: (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولنّ الله) نظير السؤال الآتي: كيف كان المشركون يعتقدون بالشريك؟ الجواب على هذا السؤال في الجملة الواردة في خطبة الإمام (عليه السلام): «إذ شبهوك بأصنامهم...» ومعناها أن جذور هذه العقيدة عند هؤلاء المشركين ناشئة من توهمهم أن الله تعالى كسائر مخلوقاته. فكما يمكن أن يكون مخلوقات شريكان معاً فكذلك يمكن أن يكون الله شريكاً مع مخلوق آخر في هذا العالم.

ثانياً: اتباع الهوى

يستفاد من آيات عديدة من القرآن الكريم من الأسباب الداعية لعبادة الأوثان إتباع الهوى النفسي.

الآية الأولى

(قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَأَتَّبِعَ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ) (٢٥٣).

وهذا يدل على أن هؤلاء في نزوعهم الى الأوثان كان هناك لون من ألوان إتباع الهوى البعيد عن التعقل والتفكير.

الآية الثانية

(إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى) (٢٥٤).

ثالثاً: التقليد الأعمى للأباء

جاء في عدة آيات من القرآن الكريم أن من الدواعي التي أدت بهؤلاء ليعبدوا الأوثان التقليد الأعمى لأبائهم وأسلافهم.

الآية الأولى

(وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعَنُ
بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوِيكُمُ النَّارُ وَمَالُكُمْ مِّن نَّاصِرِينَ) (٢٥٥) .

قال صاحب تفسير الميزان في ذيل هذه الآية:

«مودة بينكم»: الاستئنان بسنة الوثنية من آثار المودات الاجتماعية يرى العامة (من الناس) ذلك بعضهم من بعض فتبعته المودة القومية على تقليده والاستئنان به وعندما يُسألون عن السبب الداعي لهم لهذه العبادة يُجيبون (قالوا وجدنا آباؤنا لها عابدين).
فعلة هذا العمل أن آباءهم كانوا وثنيين ومحبة هذا العمل وعشقه دعى الأبناء لأن يقتفوا سير آبائهم وأجدادهم.

الآية الثانية

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى
عَذَابِ السَّعِيرِ) (٢٥٦) .

٨

أقسام المشركين

نتعرض في هذا البحث - من باب الاستطراد - الى بعض أصناف المشركين كما جاء في القرآن الكريم وسوف لا نستقصي ذلك بشكل كامل لأن هدفنا هو توضيح معنى الشرك الذي تبين لكم من البحوث السابقة.

الصنف الأول: عبدة العجل

(يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُّبِينًا) (٢٥٧).

الآية وإن لم تُصرِّح بأنهم (اتخذوا العجل إلهًا) إلا أن المفسرين قالوا: أنهم اتخذوا العجل إلهًا هلم كما جاء في تفسير مجمع البيان: (اتخذوا العجل أي عبده واتخذوه إلهًا) وجاء في تفسير الميزان أيضاً: (وهذه عبادة الصنم والعجل اتخذوه صنماً يعبدونه).

الصنف الثاني: عبدة عيسى وأمّه

لقد عبد بعض النصارى عيسى وأمّه ; قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَنكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ) (٢٥٨).

نستفيد من هذه الآية إن بعض النصارى عبدوا عيسى وأمّه كما أطلقت الآية لفظ إلهين عليهما.

لقد جاء في تفسير الميزان: (إنهم بالإضافة الى الله اتخذوا عيسى وأمّه إلهين أيضاً لا أنهم اتخذوهما إلهين وتركوا الله تعالى.

وبعبارة أخرى أن الظاهر من عبارة (من دون الله) أن البعض يتصور أنهم اتخذوهما إلهين من دون الله ولكن الواقع ليس كذلك بل أنكم اتخذتم عيسى وأمّه إلهين بالإضافة الى الله وهذا ما يُسمّى بالأقانيم الثلاثة عندهم) (٢٥٩).

(٢٥٧) النساء: ١٥٣.

(٢٥٨) المائدة: ١١٦.

(٢٥٩) الميزان ج ٦ ص ٢٤٣.

وجاء في تفسير مجمع البيان: (وقد اعترض على الله قوله تعالى: إلهين فقيل: لا يُعلم في النصرى من اتخذ مريم إلهاً؟ والجواب عنه من وجوه:

أحدها: إنهم لما عظموها تعظيم الآلهة أطلق اسم الآلهة عليهما كما أطلق اسم الرب على الرهبان والأخبار في قوله (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) لما عظموهم تعظيم الرب.

ثانيهما: إنه يحتمل أن يكون فيهم من قال بذلك، ويعضد هذا القول ما حكاه الشيخ أبو جعفر الطوسي عن بعض النصرى أنه قد كان فيما مضى قوم يُقال لهم المريمية يعتقدون في مريم أنها إله .

وجاء في الميزان - بعد نقل كلام الشيخ الطوسي حول المريمية - نقلاً عن تفسير المنار: أن مريم كانت تُعبد في الكنائس كلها وهذه المسألة متفق عليها ولكن بعد ظهور الإسلام امتنع البروتستانتين عن عبادتها إلا أن الكاثوليك استمروا على ذلك وكانوا يفتخرون بهذا العمل. في البداية كانا البروتستانت والكاثوليك يعبدونها ووضعوا تمثالاً لها في معبدهم وكانوا يحنون خضوعاً أمام تمثالها.

الصنف الثالث: عبدة الجن

يُستدل على ذلك بالآية: (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ) (٢٦٠) .

وقد مضى توضيح ذلك في البحوث السابقة.

٩

أنواع الشرك

الشرك باعتباراته المختلفه له أقسام متعددة نتعرّض لبعض منها:

١ - الشرك في الألوهية

المقصود من الشرك في الألوهية هو: أن يعتقد المشرك بوجود إله آخر نظير الله تعالى في تأثيره في عالم التكوين والوجود. وقد مرّ علينا في شرح معنى الشرك طويلاً وعرضياً. وأثبتنا بأدلة عديده أن المشركين كانوا يعتقدون بأن الأوثان تضرّ وتنفع وأنها تُشفي المرض وتشفع لهم وبهذا الاعتبار والرؤية يمكن أن تسمّى ذلك شركاً في العقيدة أيضاً. وباعتبار ممارسة هذا العمل بشكل علني وصريح يمكن أن نسمّي ذلك بالشرك الجلي الظاهري.

٢ - الشرك في الطاعة

في هذا النوع من الشرك لا يعتقد المشرك بوجود مؤثر آخر في عالم التكوين غير الله لكنه يُطيع غير الله لذا سيكون محور هذا النوع من الشرك هو اتباع وإطاعة غير الله. وإطاعة غير الله لها ثلاث أشكال:

الأول: إطاعة غير الله بسبب الأمر الإلهي في ذلك. كما في الأمر الإلهي في إطاعة النبي (صلى الله عليه وآله) والأئمة (عليهم السلام) وهذه الطاعة لغير الله هي عين الطاعة لله تعالى (وأطيعوا الله وأطيعوا الرّسول وأولي الأمر منكم) (٢٦١).

فهنا لا يوجد لدينا طاعتان إحداهما لله تعالى والأخرى لغير الله وإنما الطاعة لغير الله هنا هي نفس الطاعة الإلهية لا غير وهي عين التوحيد.

الثاني: إطاعة غير الله في الأمور الإباحية التي ليس لله تبارك وتعالى فيها حكم خاص من قبيل الحرمة أو الوجوب أو الاستحباب أو الكراهية وإلا فحكم الله فيها عام وهي أنه حَكَمَ عليها بالإباحة بأن يكون فيها المكلف مطلق العنان فلو أخذنا شرب الماء مثلاً وهو مباح - لا يوجد لله تعالى فيه حكم خاص - وأمرنا شخص ما بأن نشرب الماء واطعنا هذا الأمر في الشرب فهنا هذه الطاعة هي طاعة لغير الله لكن هذه الطاعة لا تتنافى مع التوحيد الإلهي لأننا أطعنا غير الله في مورد قد أباحه الله تعالى لنا وهذا وإن كان ليس كالشكل الأوّل الذي تكون الطاعة فيه عين الطاعة الإلهية إلا أنه لا يتنافى معها.

الثالث: اطاعة غير الله في موارد لها تعارض وتنافي مع الطاعة الإلهية. كما في أمر الصلاة فالله تعالى يأمر بها وشخص آخر ينهى عنها فهنا ترك الصلاة اطاعة لأمر هذا الشخص تعتبر من الشكل الثالث من الطاعة لغير الله التي تتعارض وتنافي مع الأمر الإلهي وفي هذا المورد يتحقق الشرك في الطاعة - أي قدّمنا طاعة غير الله على طاعة الله تعالى - والطاعة المختصة بالله تعالى - صيرناها لغير الله.

والخلاصة اطاعة غير الله في مقابل اطاعة الله هو تعبير عن الشرك في الطاعة وهذا حرام وممنوع شرعاً وعقلاً واطاعة الشيطان احدى مصاديق هذا الشكل.

الديمقراطية واطاعة الله

الطاعة والالتزام لأيّ قانون خلاف القوانين الإلهية ولو كان في قالب الديمقراطية وإطارها تعتبر شركاً في اطاعة الله تعالى.

والديمقراطية الذي لا شائبة فيها والإعتراض عليها هي تلك الديمقراطية المنسجمة مع الأوامر الشرعية أو التي تكون في الموارد المباحة شرعاً.

أما في موارد المحرمات والواجبات فلا توجد لدينا ديمقراطية فلو أبدى جميع الناس رأيهم في ترك الصلاة التي هي واجبة شرعاً فلا قيمة لهذا الرأي وهكذا لو أبدى جميع الناس رأيهم في جواز شرب الخمر الذي هو محرم شرعاً فلا قيمة لهذا الرأي أيضاً.

قال الله تعالى: أطيعوا النبي(صلى الله عليه وآله) والإمام المعصوم(عليه السلام) وفي غيبة المعصوم عليكم باطاعة الولي الفقيه واطاعة الولي الفقيه تمثل عين التوحيد في الطاعة والسير على نهج الديمقراطية التي لا تنسجم مع الشرع وتتعارض معه تمثل عين الشرك في الطاعة.

ولأجل ذلك جاء في القانون الأساسي للجمهورية الإسلامية ما يلي: عندما ينتخب الشعب رئيس الجمهورية لابد أن يوافق على ذلك الانتخاب ويؤمضيه الولي الفقيه. لأن رأي الناس لا يُعطي شرعية لرئيس الجمهورية ولا يجعل طاعته لازمة أماً عندما يوافق الولي الفقيه على ذلك الانتخاب ويمضيه تصبح طاعة رئيس الجمهورية داخلة في الطاعة الإلهية وهي عين التوحيد الإلهي.

من المناسب هنا أن ننقل لكم بعض الأمور فيما لها علاقة بموضوع البحث عن قائد الجمهورية الإسلامية سماحة آية الله السيد الخامنئي حفظه الله تعالى. وقد تطرق إليها في مقالة تحت عنوان (روح التوحيد ترك طاعة غير الله) جاء فيه:

التوحيد ليس في الاعتقاد حسب انما في العمل أيضاً وفي الطاعة. فما قيل في جوانب التوحيد في غاية الاستيعاب والدقة والعمق ومن خلال هذه الإشارات القصيرة يمكن أن

يُشخص أن التوحيد ليس مجرد رؤية نظرية وفلسفية وذهنياً غير عملية بحيث لا يمت الى الحياة بصلة ولا علاقة له بحياة مجاميع البشر وليس له تأثير في القرارات التي يتخذها الانسان وعمله ونشاطه.

ويكتفي فقط بأن يلزم الناس بالعقيدة به وأن يتركوا الاعتقاد بغيره ليس المسألة هكذا. وإنما التوحيد هو نظرة للكون نظرة للعالم والإنسان وعلاقة الإنسان بسائر ما يدور حوله من الظواهر الوجودية وموضع قدم هذا الإنسان من حركة التاريخ والقابلات التي يتمتع بها والاستعدادات والحاجات التي هي ملازمة له منذ أن خُلق وهي مستمره معه وأسماءها جميعاً هو الوصول لله تعالى^(٢٦٢).

حرمة الشرك في الطاعة

للاستدلال على هذه الحرمة نستدل بالآية: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ)^(٢٦٣).

وجه الاستدلال

ذكر في تفسير مجمع البيان للآية معنيان:

الأول: عن أكثر المفسرين المراد من (الأنداد) ألتهنهم من الأوثان التي كانوا يعبدونها. الثاني: رؤسائهم الذين يطيعونهم طاعة الأرباب من الرجال وعلى هذا المعنى ما روى جابر عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) أنه قال: هم أئمة ظلمة وأشياءهم^(٢٦٤).

من الواضح أن الرواية لا تخصص المقصود من الأنداد بالرؤساء. بل تشملهم من خلال تعميم لمفهوم الأنداد. فمفهوم الأنداد حسب ما ورد عن الإمام (عليه السلام) بالاضافة الى الأوثان له مصاديق أخرى وهي عبارة عن رؤساء الظلم الذين يتبعهم الناس ويؤيدونهم فمعنى الآية حسب المعنى الثاني: بعض الناس الذي يتبعون رؤسائهم يُحبونهم كحب الله ويطيعونهم.

وجاء في تفسير الميزان في معنى الأنداد: (ان المراد بالأنداد ليس هو الأصنام فقط بل يشمل الملائكة وأفراداً من الإنسان الذين اتخذوهم أرباباً من دون الله تعالى، بل يعم كل مطاع من دون الله من غير أن يأذن الله في اطاعته كما يشهد به قوله في الآية ١٦٦ من سورة البقرة: (إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ).

وبما أن الآية ١٦٦ مرتبطة بالرؤساء والتابعين لهم لذا سوف تكون الآية ١٦٥ أيضاً مرتبطة بكل رئيس متبع ومطاع ولا تنحصر بالأوثان والذي يؤيد ذلك أيضاً الرواية التي

(٢٦٢) نقلاً عن كتاب «ديگاه توحیدی» طبع مكتب الثقافة الإسلامية، دفتر فرهنگ اسلامی. يتضمن الكتاب مطالب مفيدة وعالية ننصح مطالعته.

(٢٦٣) البقرة: ١٦٥.

(٢٦٤) تفسير مجمع البيان ذیل الآية ١٦٥.

جاءت عن الإمام الباقر (عليه السلام) حيث قال فيها أن معنى الأنداد لا يقتصر على الأوثان بل يشمل كل ظالم.

وعليه وفق مدلول الآية وكما جاء في تفسير الميزان أيضاً: كل مَنْ يُطاع كما يطاع الله تعالى سوف يكون ندأً لله وطاعته التي سوف تكون في عرض طاعة الله شركاً حتى وإن لم يكن من قادة المجتمع - كما لو كان إنساناً عادياً - حتى وإن كانت تلك الطاعة المقدمة على طاعة الله لذلك الند في مورد واحد فقط فهي شرك ووثنية.

الآية الثانية:

(وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَا بُوْأ إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ* الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ) (٢٦٥).

توضيح

جاء في تفسير مجمع البيان^(٢٦٦) (وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ) أي الأوثان والشیطان، وقيل: كل من دعا إلى عبادة غير الله تعالى (أن يعبدوها) أي اجتنبوا عبادتها، (وأنابوا إلى الله أي تابوا إليه فاقبلوا عما كانوا عليه (لهم البشرى) أي البشارة وهي الاعلام بما يظهر به السرور في بشرة وجوههم جزاء ذلك.

ونلفت انتباهكم أننا سوف نثبت لاحقاً أن معنى العبادة هو الطاعة.

(الطاغوت) مصدر مُصاغ من مادة طغى يُطلق على المفرد والجمع.

وجاء في تفسير الكشاف (الطاغوت) فعلوت من الطغيان كالملكوت والرحموت إلا أن فيها قلباً بتقديم اللام على العين وأطلقت على الشيطان أو الشياطين لكونها مصدراً وفيها مبالغات وهي التسمية بالمصدر كأن عين الشيطان طغيان^(٢٦٧).

وعلى هذا سوف يكون معنى الآية: البشارة سوف تكون لمن اجتنب طاعة الشياطين أو الشيطان ومنه يفهم أن لا بشرى لم يطع الشياطين والشيطان وعليه فالآية تدل على حرمة اطاعة غير الله تعالى.

ربّما يُقال: كيف يمكن أن يُستفاد من الآية أن الذين يعبدون الطاغوت مشركون.

الجواب: الآيات السابقة مرتبطة بالمشرّكين وفي الآيات (١٧ - ١٨) من سورة الزمر يبيّن صفات الموحدين الذين اجتنبوا طاعة الشيطان. ومنه يُعلم أنّ ضد ذلك - أي طاعة الشيطان - يدخل تحت الآيات السابقة المرتبطة بالمشرّكين ويكون من مصايق المشرّكين.

(٢٦٥) الزمر: ١٧ - ١٨.

(٢٦٦) تفسير مجمع البيان ذيل الآية أعلاه.

(٢٦٧) تفسير الكشاف ذيل الآية.

البته نحواً لا تُريد أن نقول يترتب على الشرك في الطاعة، الأحكام الفقهية التي تترتب على الكافر مثل النجاسة وغيرها وإنما تُريد أن نقول: هناك نوع من الشرك في الطاعة قد تحقق.

٣ - الشرك الجلي (الظاهر) والشرك الخفي (الباطن)

وردت لفظة الشرك الخفي في الكتب الأخلاقية كثيراً، وأحياناً يُطلق على الشرك الخفي بالشرك الأصغر أيضاً. هذان اللفطان يطلقان على المعنى المقابل للشرك الجلي والشرك الأكبر.

ولم يأت ذكر للشرك الخفي أو الشرك الأصغر في القرآن. واستفاد العلماء هذا المعنى من خلال تفسير بعض الآيات - الواردة في الشرك - بالروايات وسوف يكون لنا حديث بصددها لاحقاً.

ولم نجد تعريفاً للشرك الخفي في الروايات وكل ما موجود في الروايات بهذا الصدد تشخيص لمصادق الشرك. ولأجل أن نجد ملاكاً لتعريف الشرك الخفي لابد أن نلاحظ المصاديق حكمت الروايات عنها.

ومن الضروري أن نبدأ بذكر بعض الروايات في هذا الموضوع:

١ - عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: «لا تُرائي بعملك من لا يحيي ويميت ولا يغني عنك شيئاً والرياء شجرة لا تثمر إلا الشرك الخفي وأصلها النفاق»^(٢٦٨).

٢ - وعن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: «.. لا يكون العبد مشركاً حتى يُصلي لغير الله أو يذبح لغير الله أو يدعو غيره عزّ وجل...»^(٢٦٩).

٣ - عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: سئل عن قول النبي (صلى الله عليه وآله): «إن الشرك أخفى من دبيب النمل على صفات سوداء في ليلة الظلمات. قال: كان المؤمنون يسبّون ما يعبد المشركون من دون الله فكان المشركون يسبّون ما يعبد المؤمنون.. فهى الله المؤمنون أن يسب آلهتهم لكيلا يسب الكفار إله المؤمنين فيكون المؤمنون قد أشركوا بالله من حيث لا يعلمون»^(٢٧٠).

توضيح

شرك المسلمين يمكن تصوّره في حالتين:

الأولى: مخالفة النواهي الإلهية فيصيروا مشركين بذلك - أي بالشرك الخفي - .

(٢٦٨) مستدرک وسائل الشيعة ج ١ ص ١٠٧ نقل من مصباح الشريعة - باب الرياء - .

(٢٦٩) ميزان الحكمة - حرف الشين - باب الشرك - الشرك الخفي - الحديث ١٩٩٤ .

(٢٧٠) بحار الأنوار ج ٦٩ ص ٩٣ نقلاً عن تفسير القمي.

الثانية: سبّهم وطعنهم لآلهة المشركين يدعو هؤلاء المشركين لأن يسبّوا الله تعالى وهذا بنفسه كان يؤدي لأن يعلن الوثنيون عن عقائدهم الوثنية والسبب لهذا الإعلان والترويج للعقائد الوثنية المسلمون وإن كان المسلمون لا يتعمدون ذلك ولا يعلمون به.

٤ - قال النبي (صلى الله عليه وآله) : «اتقوا الشرك الأصغر» قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: «الرياء» (٢٧١).

الآيات التي يمكن تطبيقها على الشرك الخفي:

الآية الأولى: (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) (٢٧٢).

وفي ذيل تفسير هذه الآية، روى عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام): أنه قول الرجل لولا فلان لهلكت ولولا فلان لضاع عيالي جعل الله شريكاً في ملكه يرزقه ويدفع عنه فقيل له: لو قال لولا أن من عليّ بفلان لهلكت؟ فقال: لا بأس بهذا» (٢٧٣).

الآية الثانية: (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) (٢٧٤).

قال الإمام الصادق (عليه السلام) في تفسير هذه الآية: «هذا الشرك شرك الرياء» (٢٧٥).

وقال الراوي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) : دخلت على رسول الله (صلى الله عليه وآله) فرأيت في وجهه ما ساءني فقلت: ما الذي أرى بك؟ فقال: «أخاف على أمتي الشرك» قلت: أيشركون من بعدك؟! فقال: «أما إنهم لا يعبدون شمساً ولا قمراً ولا وثناً ولا حجراً، ولكنهم يراؤون بأعمالهم والرياء هو الشرك ثم تلا هذه الآية: (فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) (٢٧٦).

خواص الشرك الجلي (الظاهر) والخفي (الباطن)

من المناسب أن نبيّن خواص الشرك الجلي، ومن باب تُعرف الأشياء بأضدادها نستطيع أن نحصل على ملاك الشرك الخفي. البتة لا يوجد تعريف للشرك الجلي في آيات القرآن الكريم والروايات بعنوان شرك جليّ.

(٢٧١) تفسير الكشاف ذيل الآية ١٠ من سورة الكهف.

(٢٧٢) يوسف: ١٠٦.

(٢٧٣) تفسير مجمع البيان ج ٥ ص ٤٦٢، ذيل الآية أعلاه.

(٢٧٤) الكهف: ١١٠.

(٢٧٥) مستدرک الوسائل ج ١ ص ١٠٤.

(٢٧٦) مستدرک الوسائل ج ١ ص ١٠٩.

لكن المراد من الشرك الجليله ما يبدو ويظهر لنا أنه: الشرك الذي واجهه الأنبياء وجعل المشركين والموحدين يقفون صقّين متقابلين في هذه المواجهة يُدافع فيها كلّ عن معتقداته التي يؤمن بها.

فمن تبين معالم الشرك الجلي سوف تتوضح لنا معالم الشرك الخفي وذلك لأن كل معلم من معالم الشرك الجلي الظاهر يقع على الضد منه معلم من معالم الشرك الخفي الباطن.

معالم الشرك الجليّ

سوف نطرح هنا بعض من هذه المعالم:

١ - يعتقد المشرك في الشرك الجليّ وجود غير الله - أي الأوثان - مؤثراً في عالم التكوين بشكل مستقل ويزعمون أنّ هذه الأوثان آلهة لها قدرة مستقلة تنفع وتضرّ وقد مضى توضيح ذلك في البحوث السابقة^(٢٧٧).

٢ - ارتباط المشركين بالأوثان ارتباطاً وثيقاً في الشرك الجليّ واشمئزازهم من التوحيد الإلهي.

(وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)^(٢٧٨).

فيستفاد من هذه الآية إنّ مجرد طرح الدعوة للتوحيد تؤدي بهؤلاء المشركين الى التنفر والاشمئزاز ونفس الأمر نستفيدة من الآية ٤٦ من سورة الإسراء والآية ١٠٨ من سورة الأنعام.

فعلية النفرة والاشمئزاز واحدة من أهم معالم المشركين الذين يتصفون بالشرك الجليّ بحيث لا يستطيعون أن يتحمّلوا أي إهانة وتحقير لأوثانهم وآلهتهم.

٣ - مظاهر الوثنية بين المشركين الموصوفين بالشرك الجلي كانت واضحة للعيان وبارزة وشاخصة مثل نصب الأوثان في البيوت والمعابد وتسميتها وتسمية أنفسهم بأسمائها مثل اللات والعزى وغير ذلك.

فقدان معالم الشرك الجلي في الشرك الخفي

لا يوجد من بين المعالم الثلاثة المذكورة في الشرك الجلي أي واحد منها في الشرك الخفي وعليه سوف يكون للمشرك الموصوف بالشرك الخفي ثلاث معالم وهي:

(٢٧٧) بحث (الشرك هل يقع طويلاً أم عرضياً).

(٢٧٨) الزمر: ٤٥.

١ - لا يرى المشرك بالشرك الخفي أي مؤثراً في عالم التكوين مع الله تعالى - فهو لا يعتقد بوجود غير الله مؤثراً في هذا العالم البتة أحياناً يرى تأثير غير الله بسبب الغفلة ولكن بمجرد أن ينتبه يرجع عن ذلك.

٢ - المشرك بالشرك الخفي أبداً لا ينتفّر من الدعوة للتوحيد الإلهي ولا يشمئز من ذكر الله الواحد الأحد. بل يكون له ارتباطاً وثيقاً بذلك.

٣ - ليس للمشرك بالشرك الخفي مظاهر لعبودية الأوثان ولا يظهر منه ذلك وقد مرّ علينا الرواية في ذلك عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقال: «إما إنهم لا يعبدون شمساً ولا قمراً ولا وثناً ولا حجراً ولكنهم يراؤون بأعمالهم والرياء هو الشرك»^(٢٧٩).

ومن خلال الالتفات الى ما ذكرناه نعرّف الشرك الخفي ونضع له ملاكاً في ذلك.

والظاهر أن أدق تعريف في الموضوع جاء عن (القلعجي) فقد قال:

الشرك الأصغر مراعاة غير الله في التصرفات كرياء ونحوه^(٢٨٠).

وهذا الملاك (مراعاة غير الله) في التعريف جيد جداً.

لكن في رواية عن الإمام الصادق (عليه السلام) بيّن ملاكاً آخرأ أدق من الملاك الذي جاء به

القلعجي.

(سئلته عن قول الله عز وجل... إلا من أتى الله بقلب سليم قال: القلب السليم الذي يلقي ربّه

وليس فيه احد سواه قال: وكل قلب فيه شرك أو شك فهو ساقط وإنما ارادوا الزهد في الدنيا

لتفرغ قلوبهم للآخرة»^(٢٨١).

هذا الحديث جعل الملاك في الشرك الخفي هو الالتفات والتوجه لغير الله تعالى فعليه

نستطيع القول: (ملاك الشرك الخفي هو عبارة عن وجود التوجه والالتفات لغير الله تعالى).

والذي ذكر في الروايات كان تشخيصاً لمصاديق الشرك الخفي وبالتأكيد ان الأحكام

المرتتبة على الشرك الجلي مثل النجاسة والكفر لا تترتب على الشرك الخفي. وكذلك لزوم

مجاهدتهم - بإذن الإمام (عليه السلام) - كما يُجاهد الوثنيون والصنميّون.

الرياء في الأعمال غير العبادية

نستطيع أن نبين فرقاً آخر بين الشرك الخفي وباقي الشرك وهو لا توجد ملازمة بين

الشرك الخفي والحرمة الشرعية فيمكن أن يكون هناك شرك خفي ولكن ليس بحرام شرعاً

فعن السيد آية الله الشهيد عبدالحسين دستغيب قال: (لم يُصرّح في التشريع الإسلامي بحرمة

(٢٧٩) مستدرک الوسائل ج ١ ص ١٠٩.

(٢٨٠) معجم لغة الفقهاء ص ٢٦١.

(٢٨١) أصول الكافي ج ٤ باب الأخلاص ح ٥.

الرياء في الأمور الدنيوية التي ليس لها جنبه عبادية ولذا لا ترى الفقهاء يفتنون بحرمة ذلك، ولكن الاحتياط لا يُترك لأهل الإيمان بأن يتركوا جميع مراتب الرياء حتى في الأمور الدنيوية^(٢٨٢).

توضيح

الأعمال التي أمر الله تعالى بها مثل الصلاة فإن الرياء يحرم فيها أما الأعمال المباحة مثل الأكل والشرب فلا حرمة للرياء فيها كما لو يُريد أن يظهر للناس أنه يأكل قليلاً.

الفرق بين الشرك الخفي والشرك في الطاعة

الشرك الخفي أعم من الشرك في الطاعة لأن هناك موارد يصدق فيها الشرك الخفي ولكن لا يوجد فيها طاعة لأحد. كما لو أراد المرء أن يُنجز عملاً ما بدون توجيه أمر من أحد فلا يوجد هنا طاعة لأحد في هذا المورد فهو يُرائي في أثناء العمل أما الشرك في الطاعة فهناك امر أحد أو نهى أحد في البين ففي الشرك في الطاعة يوجد ملاك الالتفات للغير مقابل الطاعة لله والاستسلام للغير مقابل الاستسلام لله.

(٢٨٢) الذنوب الكبيرة، بحث الشرك بالله.

١٠

ماهو التوحيد

الى هنا نكون قد فهمنا معنى الشرك وأقسامه وأصنافه، ومن المناسب أن نتحدث الآن قليلاً عن التوحيد لأجل أن نفهم مفهوم لفظة الموحد التي هي مقابل لفظة المشرك وعلى مَنْ تُطلق لفظة الموحد.

لقد جاء في تعريف التوحيد في نهج البلاغة عن الإمام علي (عليه السلام) : سئل (عليه السلام) عن التوحيد والعدل فقال: «التوحيد أن لا تتوهمه والعدل أن لا تتهمه» (٢٨٣).

نستفيد من هذا الكلام أن الشرك الذي هو ضد التوحيد هو مجرد مجموعة من الأوهام والخيالات - مرّ علينا توضيح ذلك - .

ففي هذه الرواية أشار الإمام (عليه السلام) الى منشأ الشرك والوثنية. فالمشرك يسرح في مخيلته ليصنع شبيهاً لله. ويؤيد هذا رواية جاءت عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: «من شبّه الله بخلقه فهو مشرك إن الله تبارك وتعالى لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء وكلّ ما وقع في الوهم فهو بخلافه» (٢٨٤).

ويُنقل أن النملة تتصور أن الله مثلها له قرنان ومعناه أن النملة تتصور الله كما هو في ذهنها.

فليس من حق الإنسان أن يقوم بصناعة شبيه لله في ذهنه فكل ما نستطيع أن نتصوره فليس هو الله إنّما هو غير الله.

فنحن ليس لنا أن نقول في حقّه تعالى إلا أنه موجود منذ الأزل والأبد له قدرة مطلقة وسائر الصفات الأخر التي وصف بها ذاته المقدسة وخير ما وصف به نفس (ليس كمثله شيء) ومن المناسب أن ننقل في المقام كلاماً للشيخ المفيد (قدس سره) نقله عن الشيخ الصدوق (قدس سره) :

(ليس كمثله شيء قديم لم يزل سميع بصير عليم حكيم حي قيوم عزيز قدوس قادر غني. لا يوصف بجواهر ولا جسم ولا صورة ولا عرض ولا خط ولا سطح ولا ثقل ولا خفة ولا سكون ولا حركة ولا مكان ولا زمان. وانه تعالى متعالى عن جميع صفات خلقه خارج من الحدين حد الابطال وحد التشبيه. وانه تعالى شيء لا كالأشياء احد صمد لم يلد فيورث ولم

(٢٨٣) نهج البلاغة، فيض الإسلام، حكمة ٤٦٢.

(٢٨٤) التوحيد للصدوق ص ٨٠ ح ٣٦.

يولد فيشارك ولم يكن له كف احد ولاند ولا ضد ولا شبه ولا صاحبة ولا مثل ولا نظير ولاشريك لا تدركه الأبصار والأوهام وهو يدركها لا تأخذه سنة ولا نوم وهو اللطيف الخبير خالق كل شيء لا إله إلا هو له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين. ومن قال بالتشبيه فهو مشرك ومن نسب الى الإمامية غير ما وصف في التوحيد فهو كاذب. وكل خبر يخالف ما ذكرت في التوحيد فهو موضوع مخترع وكل حديث لا يوافق كتاب الله فهو باطل وان وجد في كتاب علمائنا فهو مدلس^(٢٨٥).

المقدار الذي نستفيده من الروايات وكلمات المرحوم الشيخ المفيد(قدس سره)والآخرين في باب التوحيد: أنه تعالى موجود لا شبيه له، له كل الصفات الكمالية ولا نستطيع أن نقول في مقام الله شيئاً آخر غير ذلك.

قال بعض الفلاسفة: نسبة وجود الممكنات الى وجود الباري عز وجل من مقولة التشكيك - أي أن الممكنات تنطبق عليها كلمة الوجود بأدنى مراتبها بينما كلمة الوجود تنطبق على الباري عز وجل بتمام معنى الوجود وبكلمة أخرى أن الممكنات لها حظ من الوجود ضعيف جداً بينما الباري عز وجل هو الوجود كله وبتمام المعنى - كما في ضوء الشمعة عندما يُقاس بضوء الشمس فهما في مرتبتين مختلفتين وكذلك نور الوجود له مراتب متعددة. ومن وجهة نظرنا ترك البحث في مسألة الذات الإلهية ولا نحكم بشيء لأجل أن نحتاط. فما جاء من الحث في البحث الإلهي يجب أن ينحصر في الآثار لأجل أن نستطيع التفكير في آثار الله ونبتعد عن الدخول في محور الذات الإلهية.

هدف الخلقة التوحيد الإلهي ونفي الشرك

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)^(٢٨٦).

توضيح

معنى التوحيد التسليم أمام الله الواحد والاعتراف بالله في جميع الأمور سواء أكان ذلك في العقائد أم في الطاعات وترك أي نوع من الشرك والوثنية. (ليعبدون) في الأصل ليعبدونني، وقد حُذفت منها ياء المتكلم والكسر في نون الوقاية لها دلالة على ذلك. واللام في (ليعبدون) غائية، بمعنى أن الهدف من الخلق العبادة.

(٢٨٥) الاعتقادات - الشيخ المفيد(قدس سره) ص ٢١ - ٢٢.

(٢٨٦) الذاريات: ٥٦.

وجاء في بعض الروايات (ليعبدون) بمعنى (ليعرفون) ومعناها أيضاً أن الهدف من الخلق العلم والمعرفة الإلهية وهي ترجع الى المعنى الأول.
فالحاصل أن الهدف من خلق الإنس والجن هو التوحيد ومعرفة الله والتسليم له.

إنسجام التوحيد الإلهي مع الفطرة البشرية

التوحيد تعبير عن حاجة ضرورية في أعماق الذات البشرية وهو خلاف الشرك الذي هو تحميل للذات البشرية والدليل على ذلك ما مرّ في بحث (توحيد المشركين في الظروف الصعبة الغير طبيعية) كما جاء في اللحظات الصعبة والعظيمة التي يواجهها المشرك وهو في البحر ويأتيه الطوفان فلا يبقى أمامه في تلك اللحظات العظيمة إلا أن يرجع الى الله القادر لينجيه مما هو فيه ويترك ما كان يعبد من دون الله من أوثان ولمزيد من التوضيح يُراجع المبحث السابق الذي له علاقة بالموضوع (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (٢٨٧).

توضيح

«فطرت الله» أي اتبع فطرة الله والمراد من فطرة الله هو التوحيد الذي خلق الناس عليها ولها وبها ومنه قول للنبي (صلى الله عليه وآله): «كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» (٢٨٨).

الهدف من بعثة الأنبياء التوحيد

الهدف من رسالة الأنبياء القضاء على الشرك ومحوه وإحياء التوحيد الإلهي.
لقد بُعث الأنبياء لأجل أن ينقذوا البشرية من الشرك ويُربّونهم على التوحيد وهناك آيات عديدة في القرآن الكريم لها دلالة على هذه المعنى ومنها الآية: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) (٢٨٩).
فهذه الآية تقول أن الهدف من بعثة الأنبياء إقامة التوحيد وإحيائه بين البشرية وترك عبادة الأوثان وألوان الشرك الأخرى.

(٢٨٧) الروم: ٣٠.

(٢٨٨) مجمع البيان، ذيل الآية أعلاه.

(٢٨٩) الأنبياء: ٢٥.

لقد جاهد الأنبياء على طول التاريخ ضد الشرك والمشركين وحتى الرسول الأكرم(صلى الله عليه وآله) كان مكلفاً بمقاتلة المشركين وجهادهم لأجل إزالة الشرك والوثنية من المجتمع .
(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ) (٢٩٠) .

توضيح

(الفتنة): معناها في الأصل الاختيار وتستعمل في أحد الموارد الثلاث التالية وهي: ١ - البلاء ٢ - العذاب ٣ - الوقوف بوجه الدين الإلهي وهي هنا بمعنى الشرك بالله تعالى (٢٩١) .
(فلا عدوان) بمعنى فلا (عقوبة) أي لا قتل فهنا تم التعبير عن القتل بالعقوبة لأنه الجزاء المترتب على العقوبة من باب تسمية السبب بالمسبب (٢٩٢) .

فالمقصود من الآية قاتلوا حتى يخضعوا للدين والوحدانية الإلهية فإذا ما اعترفوا بالوحدانية، فلا عدوان ولا قتال.

وجاء في تفسير الميزان: (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة خاصة بالمشركين غير شاملة لأهل الكتاب فالمراد بكون الدين لله سبحانه وتعالى هو أن لا يعبد الأصنام ويُقرّ بالتوحيد وأهل الكتاب مقرّون به وإن كان ذلك كفرًا منهم بالله بحسب الحقيقة، لكن الإسلام قنع منهم بمجرد التوحيد وإنما أمر بقاتلهم حتى يعطوا الجزية لإعلاء كلمة الحق على كلمتهم وإظهار الإسلام على الدين كله) (٢٩٣) .

وجاء في البحث الروائي من تفسير الدر المنثور: أن المراد من (الفتن) هو الشرك والمقصود من (الدين لله) كلمة (لا إله إلا الله) حتى يقولوا: (لا إله إلا الله فإن انهموا فلا عدوان إلا على الظالمين) (٢٩٤) .

وجاء في تفسير مجمع البيان نقلاً عن الإمام جعفر الصادق(عليه السلام) أن المراد من الفتنة هو الشرك.

وأما تفسير (الدين) جاء فيه: حتى تكون الطاعة لله والانقياد لأمر الله ويفهم من الآية مع ما جاء في التفاسير أن الشرك كان موضع رفض وإدانة ومواجهة بشكل مستمر ودوام من قبل الله تعالى.

(٢٩٠) البقرة: ١٩٣.

(٢٩١) مجمع البيان، ذيل الآية أعلاه وتفسير عليين ٣٠.

(٢٩٢)

(٢٩٣) تفسير الميزان ذيل الآية من سورة البقرة ١٩٣.

(٢٩٤) تفسير الدر المنثور ذيل الآية من سورة البقرة ١٩٣.

١١

معنى العبادة
في اللغة والشرع

لفظة العبادة باشتقاقاتها المختلفة مثل (عبد، يعبدون و تعبدون..) استعملت في آيات عديدة.. وعليه لابد أن يتوضّح لنا هذا المعنى بشكل جيد. البعض يتصور أن العبادة مجرد فعل خاص وعمل محدد. مثل الصلاة أو الزكاة أو السجود. والحال أن المسألة ليست كذلك فهي تحتاج الى مزيد من التحقيق لغرض البيان والتوضيح.

المعنى اللغوي للعبادة

سوف نذكر ابتداءً الآراء التي جاءت في الكتب اللغوية في تفسير هذه اللفظة وبعدها نُقيم أدلة وشواهد من القرآن الكريم وفي طيات البحث سيتوضح رأينا في المعنى الذي نختاره. جاء في كتاب (التحقيق في كلمات القرآن)^(٢٩٥) - ينقل فيه آراء اللغويين - عن (مصباح اللغة) للفيومي: (عبادة الله: اعبدته عبادة هي الانقياد والخضوع الفاعل عابد والجمع عباد وعَبَدَ) فالعبادة هنا بمعنى الخضوع والتسليم واسم الفاعل منها (عابد) وجمعه (عباد) و (عَبَدَ).

وعن (مقاييس اللغة): (عبد.. يدلّ على لين وذلّ - المعبدّ - الذلول يُوصف به البعير أيضاً ومن الباب الطريق المعبدّ وهو المسلوك المذلّ). وعن (الاشتقاق): (واشتقاق العبد من الطريق المعبدّ وهو المذلّ الموطوء وقولهم: بعير معبدّ يكون في معنى مذلّ)^(٢٩٦).

لفظة العبادة في القرآن

نستفيد مما جاء في كتب اللغة أن معنى العبادة هو: الانقياد والتسليم والإطاعة والعبادات بأنواعها من قبيل السجود والصلاة وغيرها من مصاديق الانقياد وهذا المعنى ينسجم مع المعنى الذي سوف نحصل عليه من آيات القرآن الكريم.

(٢٩٥) هذا الكتاب من تأليف العلامة حسن المصطفوي، ينقل فيه آراء اللغويين في البداية ثم يستخلص منه الرأي المختار والكتاب مفيد جداً ننصح مطالعته.

(٢٩٦) التحقيق في كلمات القرآن، مادة: (عبد).

وعرّف البعض العبادة بمعنى غاية الخضوع والتذلل التي هي السجدة مثلما جاء عن تفسير الكشاف (العبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل)^(٢٩٧). وأيضاً في مفردات الراغب: العبودية اظهر التذلل والعبادة ابلغ منها لأنه غاية التذلل^(٢٩٨) فهل أن تعريف (الكشاف) وتعريف (المفردات) يختلف عن ما جاء في تعريف اللغويين أم لا؟

الجواب: في الحقيقة أنّ المعنيين لا يختلفان بمعنى أنّهما يتباينان وإنما نستطيع أن نقول أنّ اختلافهما من باب أن الكشاف والراغب يعرفان العبادة من خلال مصداقها الأكمل لا أنّهما يريان أن عبارة (غاية الخضوع والتذلل) داخل في حاق التعريف ومفهومه. فمقصودهما من العبادة هو الخضوع كما جاء في تعريف الآخرين وإنما ذكر (غاية الخضوع) لأجل بيان المصداق الأكمل والأفضل. نتعرض الآن للآيات القرآنية التي تدل على أن عين العبادة هو مطلق الخضوع.

الآية الأولى:

(أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)^(٢٩٩).

جاء في تفسير الكشاف (عبادة الشيطان: طاعته في ما يوسوس به اليهم ويزينه لهم). نستفيد أن معنى العبادة هنا هي بمعنى مطلق الخضوع لا بمعنى غايه الطاعة التي هي السجدة والآية ظاهرة في هذا المعنى أي يا بني آدم أأخذ منكم موثقاً أن لا تستسلموا للشيطان ولا تطيعوه وإنما أطيعوا الله وأسلموه له. ومن الواضح أن الآية لا تدل على أن الله تعالى أخذ من بني آدم موثقاً هو أن لا يستسلموا غاية الاستسلام أمام الشيطان وأما أدنى درجات الاستسلام لا مانع منها فليست المسألة كذلك.

الآية الثانية:

(إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ)^(٣٠٠).

(٢٩٧) الكشاف، ذيل آية إياك نعبد.

(٢٩٨) المفردات للراغب مادة عبد.

(٢٩٩) يس: ٦٠ - ٦١.

(٣٠٠) فصلت: ١٤.

وجه الاستدلال

من المسلم به أن دعوة الأنبياء لم تقتصر على أن يدعو الناس للسجود أمام الله وإنما كانوا يدعون لدين يشتمل على أحكام عديدة مثل الصلاة والصوم والزكاة والجهاد علماً أن السجود أحد الأعمال والعبادات.

والحاصل أن الأنبياء كانوا يدعون الناس الى نفس طاعة الله في سائر الأمور لا أن الدعوة كانت منحصرة بغاية الخضوع. ونفس الآية (فَإِنَّمَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ) قرينة دالة على أن دعوة الأنبياء للناس كانت مطلق الخضوع لله تعالى. وذلك لأن الكافرين أجابوا دعوة الأنبياء بأنهم يكفرون بكل ما أرسلوا به لا أن كفرهم مقتصر على دعوتهم للسجود وإيمانهم بغير السجود مما أرسلوا به الأنبياء اليهم فالمسألة ليست كذلك.

وهذه الآية مثيل الآية السابقة في دلالتها (وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ) (٣٠١).

الآية الثالثة:

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (٣٠٢).

جاء في (مفردات الراغب): (الدين يقال للطاعة والجزاء واستعير للشرعية والدين كالملة لكنه يُقال اعتباراً بالطاعة والانقياد للشرعية قال: (إن الدين عند الله الإسلام) وقال: (ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن) أي طاعة».

وجه الاستدلال

محل الشاهد في هذه الآية: (إن كنتم في شك من ديني..) معناها يا أيها المشركون إن كنتم في شك والتباس من تسليمي لله تعالى ولا تؤمنون - مع الأخذ بعين الاعتبار الدين معنى التسليم والانقياد هنا - فأنا أيضاً لا آمن ولا أسلم لأوثانكم - تُفسر معنى (اعبد) بالتسليم بقرينة المقابلة مع الدين - .

ويأمر في الآية ١٠٥ أن يكون التسليم المحض لله تعالى حسب أي يُفسر معنى عبادة الله بالتسليم.

(٣٠١) الأحقاف: ٢١.

(٣٠٢) يونس: ١٠٤ - ١٠٥.

الآية الرابعة:

(... مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى...) (٣٠٣) .

وجه الاستدلال

توضح الآية أن عبادة الوثنيين للأصنام لم تقتصر على السجود أمام أوثانهم وأصنامهم فقط وإنما هناك أعمال وطقوس أخرى من قبيل نحر القرابين أمام الأوثان إذن يكون معنى العبادة هو مطلق الخضوع أمام الأوثان.

الآية الخامسة:

(وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ) (٣٠٤) .

وجه الاستدلال

قيل: أن المراد من اليقين هنا الموت. أي اعبد الله حتى انتهاء أجلك. ومن المسلم به أن المراد لا يمكن أن يكون اسجد لله الى انتهاء العمر - إذا قلنا بأن المراد من العبادة هنا السجود - وإنما هو عليك بالطاعة والخضوع والتسليم لله الى نهاية العمر الذي قُدِّرَ لك. وعليه يكون معنى العبادة هو مطلق الخضوع والتسليم أمام الله ولا يوجد أي قيد آخر داخل في حاق المفهوم والمعنى.

تطابق معنى الدعاء والعبادة

استعمل القرآن في آياته كلمة (يعبدون) و (يدعو) و (اعبد) و (ادعو) ونحن نقول أن الدعاء والعبادة معناهما واحد. فمعنى العبادة كما توضح لنا هو الانقياد والتسليم والطاعة والدعاء أيضاً له نفس هذا المعنى ويوجد من الآيات ما يؤيد ذلك:

الآية الأولى:

(إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْشَاءً وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا) (٣٠٥) .

(٣٠٣) الزمر: ٣.

(٣٠٤) الحجر: ٩٩.

(٣٠٥) النساء: ١١٧.

المقصود من (أناث) الأوثان وقدمر علينا توضيح هذه الآية في بحوث سابقة.
ففي تفسر مجمع البيان فسر كلمة (يدعون) بمعنى يعبدون في موردين: لا يعبدون إلا
الأوثان والشيطان. ولا يفوتنا أن عبادة الأوثان هي عبادة الشياطين بعينها لأنها بأمره
وإغوائه (٣٠٦).

ويتضح لنا إن عبادة الشيطان عبارة عن طاعة أوامره وسماع وساوسه.
جاء في تفسير الميزان: (يدعون) الأولى معناها العبادة و (يدعون) الثانية بمعنى
الطاعة. والظاهر أن الجملة بيان للجملة السابقة بأن الدعوة كناية عن العبادة لكون العبادة
إنما نشأت بين الناس للدعوة على الحاجة (٣٠٧).
والتمييز بين الإثنين كما قال به صاحب الميزان ليس صحيح وإنما الرأي الصحيح ما
جاء عن تفسير مجمع البيان حيث قال كلاهما بمعنى العبادة التي معناها الطاعة.
الآية الثانية:

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي
يَتَوَفَّاكُمْ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ
اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِن الظَّالِمِينَ) (٣٠٨).

وجه الاستدلال

لا يوجد فرق بين مفاد (فلا اعبد الذين...) مع مفاد (ولا تدع من دون إله...) ومنه يُعلم
أن كلا اللفظين لهما نفس المعنى.

الآية الثالثة:

(وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) (٣٠٩).
ففي البداية جاء بكلمة (ادعوني) وفي مقام الاستدلال لاحقاً قال مَنْ يتكبر عن عبادي
سوف يدخل جهنم مهاناً ذليلاً.
فمن المناسبة الموجود بين الدليل والمدعى يقتضي أن يكون المراد من (ادعوني)
و(اعبدوني) نفس المعنى.

(٣٠٦) تفسير جمع البيان ذيل الآية ١١٧ من سورة النساء.

(٣٠٧) تفسير الميزان ذيل الآية ١١٧ من سورة النساء.

(٣٠٨) يونس: ١٠٤ - ١٠٦.

(٣٠٩) غافر: ٦٠.

أي اعبدوني و من يتكبر عن عبادتي سوف يدخل جهنم داخراً.
البتة من المحتمل أن يكون العكس هو المطلوب وهو: أن المراد من العبادة هو الدعاء
بقريئة كلمة (ادعوني) .

فيصير المعنى هكذا ادعوني ومن يتكبر عن دعائي فسوف يدخل جهنم داخراً.

الآية الرابعة:

(قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ) (٣١٠) .
فمن خلال مقارنة هذه الآية بالآية (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ) (٣١١) .
نستفيد أن هاتين الآيتين لهما مفاد واحد وهو ترك عبادة الأوثان؛ ففي الآية الأولى قال:
(تدعون).

وفي الثانية قال: (تعبدون) وهذه قريئة على أن المراد من تدعون) تعبدون.

الآية الخامسة

(قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا) (٣١٢) .
فمن مقارنة هذه الآية بالآية (قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا) (٣١٣) نستفيد أن هاتين
الآيتين لهما نفس الدلالة والمضمون إلا أنه عبّر عنها في الأولى (بالدعاء) وبالثانية
(بالعبادة) ومنه يُعلم إن الدعاء له نفس معنى العبادة.

الآية السادسة

(وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ) (٣١٤) .
فمن مقارنة هذه الآية مع الآية: (قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا) (٣١٥)
نستفيد أن (يدعون) لها نفس معنى (تعبدون) .
فمن الآيات التي ذكرناها لكم يتوضح أن معنى الدعاء هو العبادة والعبادة هي الطاعة.

العبادة الخالصة

(٣١٠) غافر: ٦٦.

(٣١١) يونس: ١٠٤.

(٣١٢) المائدة: ٧٦.

(٣١٣) الانعام: ٧١.

(٣١٤) النحل: ٢٠.

(٣١٥) المائدة: ٧٦.

العبادة المقبولة عند الباري عز وجل هي العبادة الخالصة له الخالية من أي شائبة من شوائب الشرك.

فالمشركون كانوا يعبدون الله ولكن كانوا يبعدون الأوثان الى جانب ذلك ولهذا السبب لم تقبل منهم عبادتهم وأشار القرآن الكريم الى العبادة الخاصة في ألفاظ متعددة من قبيل: (مخلصين له الدين) و (ادعوه مخلصين له الدين)^(٣١٦) وهذا هو معنى (إياك نعبد). أي نعبدك وحدك لا شريك لك.

معنى السجود

لأجل أن نفهم معنى السجود من الأفضل أن نرجع الى آيات القرآن الكريم. قال تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَّقِيُوا ظِلَّهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ* وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ* يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)^(٣١٧).

استعملت الآية لفظة السجدة لجميع المخلوقات ومن المتيقن أنها لا تريد بذلك السجود على التراب (الأرض). ولا بدّ إذن أن نعرف ماهو المعنى المراد . ففي تفسير الكشاف قال: (المراد من السجود في الآية هو انقياد الموجودات والمخلوقات أمام الله تعالى).

وهذا المعنى هو الصحيح لأن السجود على الأرض هو أحد مصاديق مفهوم السجود. البتة إنّ هذا البحث بحث لغوي وإلا لو أقيمت القرائن في موارد على أن المراد من السجود هو السجود على الأرض - كما استعمل ذلك في روايات عديدة - لكان هو المرجح المأخوذ به.

(٣١٦) الأعراف: ٢٩.

(٣١٧) النحل: ٤٨ - ٤٩.

مصادر الكتاب

- ١ - أصول الكافي / للكليني.
- ٢ - الاعتقادات / للمفيد.
- ٣ - بحار الأنوار / للمجلسي.
- ٤ - البداية والنهاية / لابن كثير.
- ٥ - معجم تاج العروس / الزبيدي.
- ٦ - تاريخ الأمم والملوك / للطبري.
- ٧ - التحقيق في كلمات القرآن / حسن مصطفى.
- ٨ - تفسير الجلالين / السيوطي.
- ٩ - تفسير عليين / للمؤلف.
- ١٠ - تفسير الجامع لأحكام القرآن / للقرطبي.
- ١١ - التفسير الكبير / للفخر الرازي.
- ١٢ - تفسير الكشاف / للزمخشري.
- ١٣ - تفسير كنز الدقائق / الميرزا محمد مشهدي.
- ١٤ - تفسير مجمع البيان / للطبرسي.
- ١٥ - تفسير الميزان / العلامة الطباطبائي.
- ١٦ - تفسير نور الثقلين / للحويزي.
- ١٧ - التوحيد / الصدوق.
- ١٨ - خبر مهم / للمؤلف.
- ١٩ - ديدگاه توحیدی / شهید مطهری - سماحة قائد الثورة الإسلامية السيد الخامنئي.
- ٢٠ - الصحيفة السجادية / للإمام السجاد (عليه السلام) .
- ٢١ - معجم العين / للخليل بن أحمد الفراهيدي.
- ٢٢ - الفايق في غريب الحديث / الزمخشري.
- ٢٣ - الفروق اللغوية في القرآن / ابو هلال العسكري.
- ٢٤ - الذنوب الكبيرة / للشهيد دستغيب.
- ٢٥ - معجم مختار الصحاح / محمد بن عبد القادر.
- ٢٦ - المستدرک على الوسائل / النوري.
- ٢٧ - معجم الفاظ الفقيه / الجعفري.
- ٢٨ - معجم الفقه الفقهاء / محمد قلعجي.
- ٢٩ - معيار الشرك في القرآن / سيد عز الدين زنجاني.
- ٣٠ - معجم المفردات / للراغب.
- ٣١ - مقدمة فتح الباري / ابن حجر.
- ٣٢ - مكاتيب الرسول لأحمد الميانجي.
- ٣٣ - ميزان الحكمة / للري شهري.
- ٣٤ - النهاية في غريب الحديث / ابن أثير.

الفهرس

المقدمة ... ٥
عقيدة الوثنيين في «الله تعالى» ... ٧
١ - عقيدتهم في الله ... ٩
الآية الأولى ... ٩
توضيح ... ١٠
إيقاظ الفطرة ... ١٢
الآية الثانية ... ١٣
توضيح ... ١٤
الآية الثالثة ... ١٤
توضيح ... ١٤
سؤال ... ١٥
الآية الرابعة ... ١٨
توضيح ... ١٨
الآية الخامسة ... ٢١
الآية السادسة ... ٢٢
الآية السابعة ... ٢٥
الآية الثامنة ... ٢٥
توضيح ... ٢٦
الاعتقاد بالذرية لله تعالى ... ٢٨
الآية الأولى ... ٢٨
الآية الثانية ... ٣٠
توضيح ... ٣٠
الآية الثالثة ... ٣٢
الآية الرابعة ... ٣٣
الآية الخامسة ... ٣٣
توضيح ... ٣٤

- الآية السادسة ... ٣٤
توضيح ... ٣٤
الآية السابعة ... ٣٥
توضيح ... ٣٦
الآية الثامنة ... ٣٧
توضيح ... ٣٧
الآية التاسعة ... ٣٧
توضيح ... ٣٨
الآية العاشرة ... ٣٨
توضيح ... ٣٨
الآية الحادية عشر ... ٤١
توضيح ... ٤١
الآية الثانية عشر ... ٤٣
الاعتقاد بأنّ الله صاحبة ... ٤٤
رفض التوحيد ... ٤٥
الآية الأولى ... ٤٥
توضيح ... ٤٥
الآية الثانية ... ٤٦
الآية الثالثة ... ٤٧
الآية الرابعة ... ٤٧
توضيح ... ٤٧
عقيدة الوثنيين في الأوثان ... ٥١
مساواة الأوثان بالله تعالى ... ٥٣
الآية الأولى ... ٥٣
توضيح ... ٥٤
الآية الثانية ... ٥٥
توضيح ... ٥٦
الآية الثالثة ... ٥٧
توضيح ... ٥٧
بحث في معنى كلمة «ندّ» ... ٥٧

الخلاصة	٥٩...
الدليل الثاني إطلاق الإلهة على الأوثان	٦٠...
الآية الأولى	٦١...
توضيح	٦١...
الآية الثانية	٦١...
توضيح	٦٢...
الآية الثالثة	٦٢...
توضيح	٦٢...
الآية الرابعة	٦٤...
توضيح	٦٤...
الآية الخامسة	٦٤...
الآية السادسة	٦٥...
الآية السابعة	٦٥...
توضيح	٦٦...
الدليل الثالث المعية	٦٦...
توضيح	٦٧...
الدليل الرابع التمانع	٦٧...
الآية الأولى	٦٨...
الآية الثانية	٦٨...
توضيح	٦٨...
الدليل الخامس «من دون الله»	٧٠...
توضيح	٧٠...
الخلاصة	٧١...
الدليل السادس توهين الأوثان	٧١...
الآية الأولى	٧٢...
الآية الثانية	٧٣...
توضيح	٧٣...
الدليل السابع (الشرك ظلم عظيم)	٧٤...
توضيح	٧٤...
الدليل الثامن ألفاظ الشريك والشرك	٧٤...

- اشتباه الوهابيين ٧٦...
الدليل التاسع عدم الملكية ٧٧...
توضيح ٧٧...
بيان الاستدلال ٧٧...
الدليل العاشر الاستقلال في التأثير ٧٩...
الدليل الحادي عشر الدعوة للتوحيد ٧٩...
وجه الاستدلال ٨٠...
الدليل الثاني عشر دعوة النبي (صلى الله عليه وآله) للتوحيد ٨٠...
توضيح ٨٠...
الدليل الثالث عشر الإخلاص في الدين ٨١...
الدليل الرابع عشر الرجوع الى الفطرة ٨٢...
توضيح ٨٢...
الدليل الخامس عشر الاشتمزاز من الوجدانية ٨٥...
وجه الاستدلال ٨٥...
الدليل السادس عشر سورة التوحيد ٨٦...
الدليل السابع عشر الاعتقاد بملكية الأوثان ٨٧...
توضيح ٨٧...
الدليل الثامن عشر إطلاق كلمة (الرب) ٨٨...
ادلة الاعتقاد بالطولية (عدم الاستقلال) ونقدها ٨٩...
الطريق الأول رأي صاحب تفسير الميزان في عقيدة المشركين ٨٩...
المراد من شفاعة الأوثان ٩٠...
الطريق الثاني لا اعتقاد المشركين بعدم استقلال الأوثان ٩١...
دليلان لاثبات الاعتقاد بالطولية (عدم الاستقلال) عند المشركين ٩٢...
نقد رأي صاحب تفسير الميزان ٩٢...
خلاصة كلام صاحب تفسير الميزان ٩٧...
نقد الرأي الثاني (عدم استقلال الأوثان في نظر المشركين) ٩٨...
السماح بالشفاعة وعدم السماح بها ٩٩...
خلاصة القول ١٠٤...
رأي آية الله الزنجاني ١٠٥...
الاعتقاد بالطولية (التبعية) على قسمين ١٠٧...

- تحليل كلام آية الله الزنجاني ونقده بشكل عام ... ١٠٩
- الردّ على كلام السيد الزنجاني بشكل مفصّل ... ١١١
- الآية الأولى ... ١١١
- الآية الثانية ... ١١١
- الآية الثالثة ... ١١٢
- الآية الرابعة ... ١١٢
- معنى الشفاعة «بإذن الله» ... ١١٣
- اعتقاد المشركين باستقلال الأوثان في الشفاعة ... ١١٧
- توضيح ... ١١٨
- الآية الثانية ... ١٢١
- توضيح ... ١٢٢
- الآية الثالثة ... ١٢٢
- توضيح ... ١٢٢
- نقد لقسم آخر من كلام آية الله الزنجاني ... ١٢٤
- الدفاع عن كلام الزنجاني وجوابه ... ١٢٦
- عقيدة الوثنيين في المعاد ... ١٢٩
- نظريتان في عقيدة الوثنيين في المعاد ... ١٣١
- رد رأي صاحب تفسير مجمع البيان ... ١٣٤
- المشركين وإنكار المعاد ... ١٣٥
- الآية الأولى ... ١٣٥
- وجه الاستدلال ... ١٣٥
- الآية الثانية ... ١٣٦
- وجه الاستدلال ... ١٣٦
- الآية الثالثة ... ١٣٧
- وجه الاستدلال ... ١٣٧
- الآية الرابعة ... ١٣٧
- الآية الخامسة ... ١٣٧
- الآية السادسة ... ١٣٨
- توضيح ... ١٣٨
- وجه الاستدلال ... ١٣٨

- الآية السابعة ... ١٣٩
- وجه الإستدلال ... ١٣٩
- الآية الثامنة ... ١٣٩
- توضيح ... ١٣٩
- دفع الشبهة ... ١٤٠
- الآية التاسعة ... ١٤٠
- الآية العاشرة ... ١٤١
- الآية الحادية عشرة ... ١٤١
- وجه الإستدلال ... ١٤١
- الآية الثانية عشرة ... ١٤٢
- وجه الإستدلال ... ١٤٢
- طقوس المشركين ... ١٤٣
- نماذج من طقوس المشركين ... ١٤٦
- وجه الإستدلال ... ١٤٧
- وجه الإستدلال ... ١٤٧
- توضيح ... ١٤٨
- وجه الإستدلال ... ١٤٨
- توضيح ... ١٤٩
- توضيح ... ١٥١
- توضيح ... ١٥٣
- توضيح ... ١٥٣
- الآية الأولى ... ١٥٤
- وجه الاستدلال ... ١٥٤
- الآية الثانية ... ١٥٤
- توضيح ... ١٥٥
- الآية الثالثة ... ١٥٥
- الآية الرابعة ... ١٥٥
- توضيح ... ١٥٦
- الثقافة الاجتماعية للوثنيين ... ١٥٩
- الوثنية ديانة وهمية ... ١٦٣

- الآية الأولى ... ١٦٥
- توضيح ... ١٦٥
- الآية الثانية ... ١٦٥
- الآية الثالثة ... ١٦٦
- الآية الرابعة ... ١٦٦
- الآية الخامسة ... ١٦٦
- الآية السادسة ... ١٦٧
- الآية السابعة ... ١٦٧
- الآية الثامنة ... ١٦٧
- الآية التاسعة ... ١٦٨
- توضيح ... ١٦٩
- الآية العاشرة ... ١٦٩
- توضيح ... ١٦٩
- الآية الحادية عشر ... ١٦٩
- الآية الثانية عشر ... ١٧٠
- الآية الثالثة عشر ... ١٧٠
- الآية الرابعة عشر ... ١٧٠
- الآية الخامسة عشر ... ١٧١
- الوثنية، حقيقة أم خيال ... ١٧١
- الآية الأولى ... ١٧١
- الآية الثانية ... ١٧١
- الآية الثالثة ... ١٧٢
- الآية الرابعة ... ١٧٢
- توحيد الوثنيين في الظروف الصعبة ... ١٧٣
- الآية الأولى ... ١٧٤
- الآية الثانية ... ١٧٤
- الآية الثالثة ... ١٧٤
- الآية الرابعة ... ١٧٤
- توضيح ... ١٧٥
- الخلاصة ... ١٧٥

- إيقاظ فطرة المشركين ... ١٧٥
- الآية الأولى ... ١٧٦
- توضيح ... ١٧٦
- الآية الثانية ... ١٧٧
- توضيح ... ١٧٨
- الآية الثالثة ... ١٧٨
- الآية الرابعة ... ١٧٩
- استعراض لضعف ووهن الأوثان ... ١٧٩
- الآية الأولى ... ١٨٠
- توضيح ... ١٨٠
- الآية الثانية ... ١٨١
- الآية الثالثة ... ١٨٢
- توضيح ... ١٨٢
- الآية الرابعة ... ١٨٣
- توضيح ... ١٨٣
- أسباب عبادة الأوثان ... ١٨٥
- أولاً الجهل بالله وعدم معرفته ... ١٨٧
- ثانياً اتباع الهوى ... ١٩٠
- ثالثاً التقليد الأعمى للآباء ... ١٩١
- أقسام المشركين ... ١٩٣
- الصنف الأول عبدة العجل ... ١٩٥
- الصنف الثاني عبدة عيسى وأمّه ... ١٩٥
- الصنف الثالث عبدة الجن ... ١٩٧
- أنواع الشرك ... ١٩٩
- ١ - الشرك في الألوهية ... ٢٠١
- ٢ - الشرك في الطاعة ... ٢٠١
- الديمقراطية واطاعة الله ... ٢٠٢
- حرمة الشرك في الطاعة ... ٢٠٤
- وجه الاستدلال ... ٢٠٤
- الآية الثانية ... ٢٠٦

- توضيح ... ٢٠٦
- ٣ - الشرك الجلي (الظاهر) والشرك الخفي (الباطن) ... ٢٠٧
- توضيح ... ٢٠٨
- خواص الشرك الجلي (الظاهر) والخفي (الباطن) ... ٢٠٩
- معالم الشرك الجلي ... ٢١٠
- فقدان معالم الشرك الجلي في الشرك الخفي ... ٢١١
- الرياء في الأعمال غير العبادية ... ٢١٢
- توضيح ... ٢١٣
- الفرق بين الشرك الخفي والشرك في الطاعة ... ٢١٣
- ماهو التوحيد ... ٢١٥
- هدف الخلقة التوحيد الإلهي ونفي الشرك ... ٢١٨
- توضيح ... ٢١٨
- إنسجام التوحيد الإلهي مع الفطرة البشرية ... ٢١٩
- توضيح ... ٢١٩
- الهدف من بعثة الأنبياء التوحيد ... ٢١٩
- توضيح ... ٢٢٠
- معنى العبادة ... ٢٢٣
- في اللغة والشرع ... ٢٢٣
- المعنى اللغوي للعبادة ... ٢٢٥
- لفظة العبادة في القرآن ... ٢٢٦
- الآية الأولى ... ٢٢٧
- الآية الثانية ... ٢٢٧
- وجه الاستدلال ... ٢٢٨
- الآية الثالثة ... ٢٢٨
- وجه الاستدلال ... ٢٢٩
- الآية الرابعة ... ٢٢٩
- وجه الاستدلال ... ٢٢٩
- الآية الخامسة ... ٢٢٩
- وجه الاستدلال ... ٢٣٠
- تطابق معنى الدعاء والعبادة ... ٢٣٠

- الآية الأولى ... ٢٣٠
- الآية الثانية ... ٢٣١
- وجه الاستدلال ... ٢٣١
- الآية الثالثة ... ٢٣٢
- الآية الرابعة ... ٢٣٢
- الآية الخامسة ... ٢٣٣
- الآية السادسة ... ٢٣٣
- العبادة الخالصة ... ٢٣٣
- معنى السجود ... ٢٣٤
- مصادر الكتاب ... ٢٣٥